عبّاس محمود العقّاد



غراميّات العقّاد



غراميّات العقّاد

غراميات العقاد

اعداد
عامر العقاد

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م



الإهداء

إلى مظهر الجمال الحي في دنيا الرجل . .

إلى حواء الخالدة في كل زمان ومكان . .

إلى ملهمة الشاعر والفنان ..

إلى من جعلت العقاد يشدو قائلاً :

وبي سكر تملكني
وأعجب كيف بي سكر
رددت الخمر عن شفتي
لعل جمالك الخمر

* * *

نعم أنت الرحيق لنا
وأنت النور والعطر
وأنت السحر مقتدراً
وهل غير الهوى سحر

المؤلف

مقدمة

منذ دبت الحياة الإنسانية على الأرض سعى الرجل إلى إرضاء المرأة في أساليب شتى تفنن فيها وأعمـــل براعته وخياله وعبقريته ، فطوراً كان يغني بالأصوات وطوراً كان يعزف على الآلات ، وأحياناً يخترع القول وأطيب الحديث .

والرجل في هـــذا كله فنان يسعى إلى قلب المرأة يمتلك هواها وقيادها فيتخذ الفن سبيلاً إليها . فهو بذلك يتحدث عنها ويتحدث إليها ، وحديثه هو الغزل. وقد تغزلت الأمم منذ ولادة الدنيا بأساليب تناسب الأرض والإقليم والجنس والعنصر ، وتوافق الزمان والمكان والظروف . ونشأ عن غزل الأمم دواوين مختلفة الصفحات والألوان تشهد على أن الإنسان هو الإنسان ، يحب ويهوى ويفصح عن حبه في شعر ونثر مهما اختلفت اللغات والأجناس .

بهذه السطور قدم الدكتور سامي الدهان لكتابه « الغزل » الذي

صدر عن دار المعارف للطباعة ضمن سلسلة فنون الأدب العربي منذ سنوات .

والحقيقة التي نتوخاها في بحثنا هذا عن « غراميات العقاد » ، أو عن حواء في حياة هذا العملاق المفكر تقتضينا قبل الخوض في تلك الصفحات أن نقـــدم لها بتاريخ موجز لشعر الغزل وأثره في الدراسات الأدبية .

ولقد نقلت لنا الحضارات خـــلال سيرها من الشرق إلى الغرب ألواناً عديدة من الحب على مدى الأجيال صبغته كل أمة بألوانها وأفاضت عليه من أحاسيسها وتقاليدها . فمنها من نقصت من عمقه أو زادت فيه ، ومنها من رققت من حواشـــيه وبدلت من معانيه وسبكته بالفاظ وصور تختلف فيما بينها على السبيل والطريق وتتفق كلها في هوى القلب وبث الصبابة والوجد .

وحواء في ذلك كله تنتقل على جناح الشعور والعاطفة والخيال في أجواء الأمم ، فتلبس أثواباً مختلفة وتتخذ أشـكالاً شتى ، فهي طوراً ملاك وطوراً إلاهة ، وأحياناً تشبه في ألوانها وأعضائها ما في الأرض والصخر والسماء والماء من حيوان وجماد .

وعن طريق الآداب القديمة وما سجله المؤرخون القدامى عرفنا كيف تغزلت الأمم . . منها من جـــاء غزله منحوتاً على الحجر أو محفوظاً على أوراق الـــبردي أو مسطوراً في كتاب . فالشاهنامه

الفارسية والمهابهارتا الهندية والإليـــاذة اليونانية والإنيادة الرومانية وأغاني رولان عند الفرنسيين وهيلد براند عند الألمان وغيرها من كتب الملاحم والسير كلها تصف المرأة وتجعلها غاية الرجــل وأمنية هواه وأغنية شعوره ومحل خياله .

والذي لا شك فيه أن الغزل أدب وجداني راق يعبر عن الأحاسيس في مجالات الحب . ففيه استحضار لماض سعيد أو شقي ، ترك في العين دمعة أو في القلب لهفة . لذلك كله كان الغزل ولا يزال معيناً لا ينضب بالنسبة لفهم الحياة الاجتماعية التي يعيشها أصحابه . فهو الذي يرسم ذوق العصر ويصور عواطف الشعراء والمفكرين .

بل لقد قسم بعض النقاد الشعراء إلى ما يشبه التخصص في لغة العصر الحديث .. طائفة الهجائين وطائفة المداحـــين وغيرهم .. بل عرف الدارسون للشعر العربي القديم ما أسموه بأهجى بيت قالته العرب وأمدح بيت وأغزل بيت إلى آخر التقسيمات التي حفلت بها مجاميــع الأدب كالأغاني والأمالي وغيرها من الأمهات في كتب التراث .

والشعر الجاهلي على إطلاقه حافل بقصائد الغزل . بل كان الغزل وبكاء الأطلال هو فاتحة قصائد الشعراء على مختلف بيئاتهم . وقد لمعت أسماء في الشعر العربي على أنهم طبقة من الغزليين أو المتغزلين وعلى رأسهم « عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة وكثير » وغيرهم الكثير .

ومالنا نذهب بعيداً ، ألم تكن قصيدة كعب بن زهير التي ألقاها

بين يدي الرسول عليه السلام مبدوءة بالغزل ، ونعني بها لاميته التي يقول فيها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غضيض الطرف مكحول

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت
كأنه منهل بالراح معلول

كانت هذه القصيدة من كعب في حضرة الرسول رغم أن الفترة التي قالها فيها هي التي شغل الإسلام فيها العربي بالفتوح وصرفه عن الغزل والنسيب . وحسبنا ما قاله شاعر آخر كدليل على تلك الروح التي سادت العرب بالنسبة للغزل :

قالت هلم إلى الحديث ، فقلت لا
يأبى عليّ الله والإسلام

وفي حياة كبار الأدباء والمفكرين أكثر من قصة حب . . حفظها لنا التاريخ . وحواء فتنة من فتن الوجود ، والأديب فنان وسيلته

الكلمة . والفنان عابد من عباد الجمال . فكلما لاح من حواء بريق أضاء الأديب هيكله من ذلـــك البريق . فهي سراب لا يفتقر إلى الظامئين أو هي الجمر الذي لا يعلوه رماد .

والعقاد كما لا يخفى على القراء من مفكرينا الكبار الذين أثروا المكتبة العربية بزاد لا ينفد وذخيرة أدبية باقية . ولكن السؤال الذي يجول في خاطر الكثيرين هو : هل كان لحواء بصمات في حياة هـذا العملاق كما كان لها مع غيره من المفكرين ؟!

الواقع الذي ستكشفه هذه الصفحات أن نفس هذا المفكر الكبير كانت تنطوي على قلب رقيق نابض بالحب . وأنه عاش أياماً من حياته ذاق فيها طعم الهجر وقاسى خلالها من الشك ما قاسى !

يقول في روايته « سارة » : « كانت شكوكاً مـــريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الأرض وكل حلاوات الحياة : كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويداً رويداً ولا يزال ينطبق وينطبق حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار ، وكثيراً ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة في مداعبة الفريسة قبل التهامها ، فينفرج وينفرج حتى يتسع اتساع الفضاء بين الأرض والسماء ثم ينطبق دفعه واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف : بطل المـكان فلا مكان ولا أمل في المـكان ، ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال » .

ويستمر العقاد في وصف حالة الشك التي اعترته خلال حبه لسارة فيبلغ الشأو في رسم الصورة وتصوير ذلك الإحساس حيث يقول :

« .. ألم لا نظير له في آلام النفوس والعقول ، وحيرة لا تضارعها حيرة في الإحساس والتخمين ، وأقرب ما كان يشبه به هذه الحيرة حالة الأب المستريب الذي يشك أفجع الشك في وليد منسوب إليه : هل هو ابنه أو هو ابن غيره ؟ هل هو رمز الحب والعطف والصدق والوفاء ، أو هو رمز الخداع والخيانة والاستغفال والاحتقار ؟ هل هو مخدوع في عطفه عليه ، أو هو مخدوع في نفوره منه ؟ وكيف يفصل في هذين الخداعين ؟ وكيف يطيق الصبر على واحد منهما ، وكلاهما لا يطاق[1] » .

أما صديقه الذي عاش معه ولازمه طوال تلك المحنة ، بل وكان يقوم بدور الرقيب لتلك المحبوبة فيقول :

« كان يقول لي إنه حبي الأخير الذي لا حب بعده ومن أجله أتألم ويتمثل بقول المتنبي :

ولو زلتم ثم لم أبككم بكيت على حبي الزائل

(١) سارة للعقاد طبعة بيروت ص ٣٠ .

ويوقظني من نومي بعد منتصف الليل لخاطر يمر بذهنه ويأخذ رأيي ، وأنى لي رأي إلى جانب رأيه ، ولكن الغريق يستند على قشة كما يقولون في الأمثال » (١) .

لقد عرف قلب العقاد أيام شبابه صنوفاً من الحب مختلفة وفي هذا يقول :

عرفت من الحب أشكاله وصاحبت بعد الجمال الجمال
فحب المصور تمثاله عرفت وحب الشباب الخيال

* * *

وحب القداسة لم أعده وحب التصوف لم يعدني
ومن كل حب ورى زنده سمات من المؤمن الديّن

* * *

وحب التي علمتني الهوى وحب التي أنا علمتها
ومن أَستمد لديها القوى ومن بالقوى أنا أمددتها (٢)

---

(١) في صحبة العقاد للأستاذ محمد طاهر الجبلاوي طبعة أولى مكتبة الأنجلو المصرية ص ١٦٣ .

(٢) ديوان هدية الكروان للعقاد .

وللعقاد في أيام شبابه شعر حسي جعلته حواء يتالق فيه تالقـــاً ملحوظاً وحسبنا قصيدته التي يقول فيها :

وباتت تساقيني من الوصل خمرة　　سقى الحب مجناها ورف حياله
وتقطف لي زهرها بيمينهـــا　　وترشـــفني عذب الهوى وزلاله
تجول بكفي من مناعم جسمها　　تريني منـه ليـــنه واعتداله
وتلمسني عضواً فعضواً كأنما　　تلمســـني أوصاله ووصاله

لقد دان العقاد لحواء في شبابه وقبل منها الوجـه بل اليدين وما ارتوى على كثرة العب وطول الرشف ، وفي ذلك يقول شعراً :

وألثمـــه كيما أبرد غـــلتي　　وهيهات لا تلقى من النار روايا
فقبلت كفيه وقبلت ثغـــره　　وقبلت خديه وما زلت صاديا
كأنا نذود البين بالقرب بيننا　　فتشتد من خوف الفراق تدانيا
كأن فؤادي طائر عاد إلفه　　إليه فامسى آخر الليـــل شاديا
إذا مـا تضامنا ليسكن خفقه　　تنزّى فيزداد الخفوق تواليـــا
وتلمس كفي شـــعره فكأنني　　أعارض سلسالاً من المـــاء صافيا
وأشكوه ما يجني ، فينفر غاضباً　　وأعطفه نحوي ، فيعطف راضيا
ولما تقضى الليل إلا أقـــله　　وحان التنائي جشت بالدمع باكيا[1]

---

(١) ديوان العقاد الجزء الأول قصيدة ليلة الوداع .

أليس العقاد هنا من أرق الرجال وهو يترضى محبوبته ويقبل منها الخدين واليدين شأن المحبين المتيمين ! إلا أننا نلاحظه يزيد هذا الموقف قيمة حينما ينبئنا أنه لا يفعله كمن يلهو أو يشتهي بل أنه يحب حواء لذاتها لا لجمالها وحسنها وفي ذلك يقول :

نبئيني ، فلست أعلم ماذا ... منك قلبي بحسنه مشغوف
كل حسن أراك أكبر منه ... إن معناك تالد وطريف
لست أهواك للجمال وإن كا ... ن ذكاء ينهي النهى ويشوف
لست أهواك للدلال وإن كا ... ن ظريفاً يصبو إليه الظريف
لست أهواك للخصال وإن ر ... ف علينا منهن ظل وريف
لست أهواك للرشاقة والرقة ... والأنس وهو شتى صنوف
أنا أهواك (أنت) أنت فلا شيء ... سوى (أنت) بالفؤاد يطيف
إن حباً يا قلب ليس بمنسيك ... جمال الجميل حب ضعيف

ونراه في قصيدة أخرى يرى في محبوبته الدنيا كلها بما فيها من جمال وروعة ، بل هي دنيا خاصة غير هذه الدنى فيقول :

ماذا من الدنيا ـ لعمري أريد ... أنت هي الدنيا ، فهل من مزيد ؟
والفن إن لم تك نجواه من ... نجواك لغو باطل لا يفيد
وكل ما في الكون من روعة ... لها نظير فيك حي جديد
بل أنت دنيا غير هذه الدنى ... وكل حب فيه « كون » وليد

للعقاد رأي في المـرأة التي تعجبه وتروقه أجمله في روايته « سارة » حيث قال عن نفسه إنه قليل المرح ويروقه في المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ، ولا مبالغة ، ويعرف المرح الذي يزين المرأة ويشوقه إليها مرحاً « موقعاً » تشبيهاً بالغناء الذي ينطلق انطلاقاً وينبعث انبعاثاً ولكنه يقف حينا يحسن به الوقوف . ويسكن حينا يطلب منه السكون ، ويقف ويسكن لا على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن ، أو على قافية تختم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذي يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع وطرافة السماع .

ويحب العقاد في المرأة ـ أيضاً ـ الزينة التي تغري من يبصرها إغراء لا يخفى ، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد تكذيبها ببرهان . كما يحب المرأة التي تدرك الفكاهة ويكره التي تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضاً مفتوحاً في كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على إتقان المزاجين هو دليل « نيتشه » الذي يقول إن الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين في المزاج والتفكير وما انفصل إثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما في تمييز النكات .

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون « إنساناً » في بعض

الأوقات بمعزل عن الأنوثة والذكورة ، فلا تكون الأنوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة .

إن قصة العقاد مع المرأة طويلة جداً يرجع تاريخها إلى عام ١٩١٢ حينما لخص في كتابه الذي أسماه « الإنسان الثاني » مقال شوبنهور عن النساء . والمتتبع لكتاباته يجد أن هذا الموضوع كان من موضوعات قراءاته الهامة والمتعددة ، فهو قد قرأ المائدة لأفلاطون ، وميتافيزيقا الحب لشوبنهور ، كما قرأ ما كتبه علماء الجنس المتخصصون من أمثال فرويد وأدلر وغيرهم كما قرأ في سنه المبكرة كتاب « الجنس والأخلاق » لأوتو فينجر الذي ترجم إلى اللغة الانكليزية سنة ١٩٠٦ فقد أشار العقاد إليه في مقال نشره بصحيفة البلاغ في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٣ عن صفات المرأة .

يقول العقاد :

« والرحمة من أخص مناقب المرأة التي تنسب إليها . وكأني بسائل يبادر مستغرباً فيقول : وكيف لا ؟ أفي ذلك شك أيضاً ؟ فأقول : أما أنا فلا شك عندي في رحمة المرأة إذا دعتها الطبيعة إلى الرحمة ، ولكن يشك في ذلك كاتب من أذكى من نبغ في هذا العالم وأعني به تلميذ شوبنهور « أوتو وينجر » الألماني صاحب كتاب « المزاج والجنس » الذي أفرده للكلام في العلاقة بين الجنس والأخلاق فأتى

فيه بالعجب من براعة التفكير واستقامة الملاحظة . فهذا الفيلسوف الفتى يرى أن المرأة مطبوعة على القسوة وبلادة الحس ولا دليل له على على ذلك ـ فيما أذكر ـ إلا ما يتخذه النـــاس دليلاً على شدة عطف المرأة ورقة قلبها وعظيم شفقتها . دليله على قسوة المرأة أنها تصبر على مراقبة المرضى وخدمة المصابين وملازمة فراشهم ولا يكون هذا إلا من آيات الطبـع البليد والقلب المغلف ، لأنها لو كانت تعطف عليهم عطفاً صادقاً وتكره أن يتألموا لمـــا أطاقت الصبر على سماع أنينهم وإطالة النظر إلى سيماء العذاب والألم في وجوههم . ولكنها لا تشعر بالعطف الصادق ولا تؤلمها الشفقة كما تؤلم نفوس الرجال فلا تحاول ان تبعد من أســـرة المرضى كما يفعل الذي يؤذيه أذاهم وتوجعه أوجاعهم ، وهذا تأويل صبرها على التمريض ومواساة الجرحى والترفيه عن الموجعين » .

ويعقب العقاد على رأي تلميذ شوبنهور مدافعاً عن المرأة فيقول :

أما أن شفقة المرأة غير شفقة الرجل فذلك ما لا ريب فيه ، وأما أن ملازمة المرضى دليل على الخلو من الشفقة ففيه رأي آخر ، وأولى بذلك عندي أن يكون دليلاً على الاستغراق في عاطفة الرحمـــة لا على الخلو منها ، لأن من شأن الاستغراق في عاطفة أن يذهل صاحبه عما حوله ، كما يذهل العاشق الواله عن موجبات البغض والنفرة من

معشوقه ، فإذا هو ينجذب اليه بما حقه أن يبعده منه ويفتتن فيه بما لعله أدعى إلى البغض والكراهية »[1] .

ونتيجة لتلك القراءات المتعددة عن المرأة وإمعان النظر في تصرفاتها كان لا بد أن يقف العقاد طويلاً أمام قصة حواء حينما أكلت من الشجرة وزينت لآدم أن يأكل منها ، وكان كتابه « هذه الشجرة » . وفي هذا الكتاب نظر العقاد إلى المرأة نظرة الفيلسوف المدقق أو الباحث الممحص وخرج في نهاية بحثه أن تلك القصة التي تناقلتها الأديان الكتابية هي الرمز الخالد في طبيعة المرأة التي لا تتغير : تفعل ما تنهى عنه وهي تغري الرجل . وفي كل من هذين الخلقين دليل مجمل على خلائق أخرى مفصلة تنطوي في ذلك الرمز الكبير . كما انتهى في بحثه ـ أيضاً ـ إلى أن « هذه الشجرة » عنوان ما في المرأة من خضوع يؤدي إلى لذة العصيان ، ومن دلال يؤدي إلى لذة الممانعة ، ومن سوء ظن ، وعناد ضعف ، واستطلاع جهل ، ومن عجز عن المغالبة ، وعجز عن الغلبة بغير وسيلة التشهية والتعرض والإغراء .

لقد كانت لتلك الآراء التي ضمنها العقاد كتابه عن المرأة وقصة الشجرة أثر في نفوس البعض ، فتقولوا عليه بأنه عدو المرأة رقم

---

(١) البلاغ الصادر في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٣ مقال « صفات المرأة » للعقاد .

واحد . وأنه يحقد على المرأة ، وأنه لا يعرفها ، إلى آخر تلك الأحكام المتسرعة . ولو أنهم دققوا النظر وأعملوا الفهم لوجدوا أنفسهم في موقف المتجني على المفكر العملاق . فالذي يقول في كتابه « المرأة في القرآن » : وقد يوجد من النساء من تقوم شهادة إحداهن بشهادة ألف رجل ولقد يوجد من الرجال ألوف لا تقبل منهم شهادة .. أو الذي يقول في مسألة الميراث : إن زيادة حصة الأخ ليست مسألة أفضلية ولكن لأنه ــ أي الأخ ــ هو المسؤول عن نفقة الأخت ولأن الإبن يعول من لا عائل لها من أهله ، ولأن رب البيت عامة هو الزوج أو الأب أو الرشيد من الأبناء والإخوة ومن إليهم ، ولأن تقرير وجوب السعي على الرجل أولى وأصلح من تقريره على المرأة التي يظلمها من يساويها به في واجبات السعي على المعـــاش ، مع نهوضها بواجب الأمومة والحضانة وتدبير المعيشة المنزلية . . »

فهل من يقول هـــذا يمكن أن تشير إليه أصابـع الاتهام بالعداء للمرأة ؟! هذا لو كان للمنطق فيمن يدعون هذه الدعوى أقل الحساب . أما وأن ينحى المنطق وتنطلق الأحكام الجزافية على علاتها فهذا ما لا سبيل إلى مناقشته أو بحثه .

ولقد كان فيما كتبه تلميذ العقاد الأستاذ أنيس منصور عقب وفاة أستاذه في هذه القضية ما نعتبره إنصافاً له ورداً على من رمـــوه بتلك التهمة قال : « إن ما كتبه العقاد عن المرأة يدل على أنه فهمها

بوضوح . . كأنه عرف ألف مليون امرأة ، كأنه عرف المرأة منذ كان اسمها حواء ، إلى أن أصبح اسمها مي أو إليزة أو هنومة .. ولم تكن علاقة العقاد بالمرأة بجرد معرفة ، بجرد دراسة وبحث ، كما يدرس قطة أو نحلة أو قطعة حجر ، ولكن العقاد كان محباً ، وكان عاشقاً ، وعرف البكاء ، وعرف جروحاً عميقة في كبريائه وتعذب من الشك ».



فلسفته في الحبّ والجمال

« خلاصة التجارب في الحب اننا لا نحب حين نختار ، ولا نختار حين نحب ، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد ، وحين نحب ، وحين نموت » .

العقــــاد

لا شك في أن العقاد كان من أوائل مفكرينا العرب الذين اهتموا بفلسفة الجمال عندنا ، ذلك لأن المتتبع لكتاباته في فجر الشباب يجده قد اهتم بهذا الموضوع منذ مطلع هذا القرن ، حينما ذهب إلى إحدى المكتبات بالقاهرة ليسأل عن كتاب باللغة العربية في فلسفة الجمـــال . وكان العقاد قد قرأ من قبل ذلك كتاباً للأديب الانجليزي إدموند بيرك عن « الجليل والجميل » فخطر له يومذاك أن مثل هذا البحث لا بد من أن يكون مطروقاً في لغتنا العربية ، ولكنه لم يلبث أن تحقق من أن أحداً لم يتناول هذا الموضوع في كتاب بلغتنا العربية ، وكان عليه أن يقرأ عن أصول نظريته الجمالية في الكتب الأوربية خصوصاً ما

كان مؤلفاً منها باللغة الانجليزية . والمتتبع لقراءات العقاد يجده انه لم يتوقف عند الأدب الانجليزي فحسب . فقد قرأ العقاد ـ أيضاً ـ بول فاليري ، وروماں رولان ، وأندريه جيد ، وبيرجسون ، وليو باردي ، وجيتي ، وشلر . وغيرهم الكثير من رجالات الثقافة الأوربية .

إذن فنحن متفقون على أن فلسفة العقاد في الجمال عندنا هي أول فلسفة ظهرت في هذا المجال لمفكر عربي معاصر . بمعنى أن العقاد كان من أوائل مفكرينا الذين جعلوا من الجمال والحرية شيئاً واحداً . فالفكر العربي المتحرر والذي يمثل العقاد ـ بدون شك ـ أحد أعمدته الرئيسية قد وجد في الفنون الجميلة المجال الوحيد الذي يشبع حاسة الحرية في النفس البشرية ويتخطى بها حدود الضرورة والحاجة . وكان أول مظهر من مظاهر ذلك الفكر الحر الذي لا ترين عليه الجهالات ولا تغله الخرافات .

والواقع أن اهتمام العقاد بفلسفة الجمال في فجر شبابه لم يكن في صميمه سوى مجرد مظهر لتبرمه بعصر الجمود ونزوعه نحو إسراع الخطى إلى عصر الطلاقة والتجديد [1] .

والملاحظ أنه قد ارتفعت صيحات متعددة في عصر العقاد معلنة

---

(١) فلسفة الفن في الفكر المعاصر د. زكريا إبراهيم منشورات مكتبة مصر الفجالة صفحة ٣٧١ .

أننا في عصر العلم فلا حاجة بنا إلى الأدب ، أو أننا في عصر النـــار والحديد فلم يعد ثمة مبرر لبقاء الفن والجمال ، أو أننا في عصر الحقيقة فلا موجب للالتجاء إلى الخيال . وكانت ردود العقاد على تلك الدعوات هي أن العصر الذي يحصر الحياة في نطاق واحد هو أخبث العصور وأسخفها ، لأنه عصر ضيق الأفق يحصر الحياة في نطاق محدود . وفي ذلك يقول العقاد .

« لم يغلبنا الغرب لأنه قال بالعلم دون الأدب ، أو بالمخترعات دون الأخيلة والخواطر النفسية ، ولكنه غلبنا لأنه وسع نطاق الحياة » .

فهكذا كان دفاع العقاد عن الفن والأدب ، منذ البداية ، دفاع كاتب حر يؤمن بالطلاقة والتجديد ، ويجزع من كل مظهر من مظاهر الجمود . بل نراه قد عبر عن إيمانه هذا في قوة وصراحة في أحـــد مقالاته التي نشرها بمجلة « الرسالة » بعنوان « الشعر والدبابات » حيث قال :

« وسعوا أفق الحيـــاة ولا تضيقوه وأنتم على ثقة من صواب ما تعملون وجدوى ما تعملون . أما « خذوا هذا ودعوا ذاك » فهو كلام كسالى مهزولين لا يصلحون للعلم ولا للأدب، ولا يفلحون مع الطيارات ولا مع الحمير والبغال ، ولا يزالون يجهلون ما يقولون ثم لا يتوارون

يجهلهم عن العيون بل يتحلون به حلية الفخار ويبرزون للتعليم والتنديد [1] » .

وبنفس هذه الحمية في الدفاع عن الأدب والفن نراه يستمر حتى أخريات أيامه ، فقد حدث أن كتب أحد الصحافيين في السنوات الأخيرة أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر الصواريخ فلا لزوم للشعر فيه . ويومها خرج العقاد لذلك الكاتب على صفحات جريدة الأخبار التي كان يحرر بها يومياته كل أسبوع مدافعاً عن الشعر كفن من أرقى الفنون حيث قال :

« .. ولكن الأمر لا يدعو إلى القلق إذا كان قصاراه أن يتصايح بعض « الأميين » من الكتاب بالاستغناء عن الشعر والأدب في عصر الصاروخ ، فإنها صيحات لا خسارة فيها على الشعر ولا مكسب فيها للصاروخ ، إذ ليس من يصيح بمثل هذا الهراء معدوداً من أهل الشعر والفن ، ولا من أهل الصاروخ والصناعة ، وما كان هؤلاء الصائحون وأمثالهم محبين للشعر قبل اختراع الصواريخ ولا هم ممن يعرفون مكان الصواريخ من أطوار التقدم الحديث .

فليس مكان الصاروخ أن يحل محل الشعر أو محل فن من أخوات

---

(١) الرسالة العدد ٥٧١ السنة الثانية عشرة الصادرة بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٤٤ مقال العقاد « الشعر والدبابات » .

الشعر كفنون الموسيقى والغناء والتمثيل والتصوير ، إلى أشباه هذه المطالب الإنسانية التي وصفت بالجمال قبل أن توصف بالفائدة .

وإنما وجد الصاروخ ليحل محل الطيارة التي تتخلف عنه في السرعة والمضاء ، وربما صح أن يقال فيه إنه قد وجد ليغنينا بعض الغنى ـ أو كل الغنى ـ عما دون ذلك من أدوات المواصلات .

ولو قال قائل : لا نريد حميراً في عصر الصاروخ لكان في قوله بعض المعنى المفهوم .

أما أن يكون الصاروخ بديلاً من التعبير الجميل عن النفس الإنسانية فهو قول لا معنى له في عصور الصواريخ ولا في عصور الحمير [1] » .

وتمتاز فلسفة العقاد الجمالية عن غيرها لدى المفكرين الآخرين الذين عنوا بهذه الفلسفات في انه وحد بين الجمال والحرية . بل تمتاز بأكثر من ذلك في أن العقاد قد وسع من معنى الحرية نفسها . إذ لا يقتصر فهمها عنده على المعنى الإرادي البشري ، بل نراه يضيفها أيضاً على بعض الأشياء الجمادية الماثلة في الطبيعة . وبهذا المعنى تكون الحرية هي الانطلاق من القيود التي تعطل مجرى الحياة وتعوق عن الحركة .

---

(١) يوميات الأخبار للعقاد الصادرة ١٩٦٣/١٠/٣٠ ويراجع يوميات العقاد جزء ٢ منشورات دار المعارف القاهرة صفحة ٣٢٧ .

ولذلك نرى العقاد يقول : إن الماء الجاري أجمل من الماء الآسن ، كما أن الوردة الطبيعية أجمل من الوردة الصناعية ، ولا يقتصر العقاد على القول بأن الأشياء لا تكون جميلة إلا بمقدار ما هي حرة ، بل نراه يؤكد أن درجة حيوية الأشياء تتوقف على حظها من الجمال ، وان مقياس الجمال في مضمار الحياة العضوية إنمـــا هو تلاؤم العضو مع وظيفته . ولعل هذا هو ما عبر عنه حينما كتب يقول :

« .. إنه كلما كانت وظائف الحياة ظاهرة غير معتاقة في حركتها ، كانت الأعضاء صحيحة حسنة الأداء ، وكان عمل الحياة بها سهلاً ، وحريتها فيها أكمل ، وكلما كان العضو سهلاً لعمل الحيـــاة ، فهو العضو الذي يجاوب مطالب الحياة ، ويحقق لها حريتها ، وهو العضو الجميل »[1] .

ويتضح لقارىء ذلك المقال انه يرى أن الحرية غاية الحياة ، وأن الشيء لا يكون جميلاً إلا بقدر ما يستجيب لهذه الغـاية التي تنشدها الحياة . ومن هنا فإن العضو الجميل إنما هو ذلك العضو المنطلق الذي يستجيب لمطالب الحيـــاة ، بحيث يؤدي وظيفته ، دون أن تعوق حركته أية قيود[2] .

---

(١) مقال العقاد بعنوان « الحرية والفنون الجميلة » نشره سنة ١٩٢٣ .

(٢) فلسفة الفن في الفكر المعاصر للدكتور زكريا ابراهيم منشورات مكتبة مصر القاهرة صفحة ٣٧٣ .

ويسارع العقاد فيضرب لقارئه الأمثلة على نظريته فيقول له : إن الصوت الجميـــل إنما هو الصوت « السالك » الذي يصدر عن حنجرة صافية ليس هناك ما يعوقها عن الانطلاق والحركة . وليست الرشاقة سوى مجرد تعبير عن تلاؤم أعضاء الجسم مع وظائفها ، وتأديتها لهذه الوظائف في سهولة وخفة ، وانطلاقها في حركاتها دون بطء وتثاقل .

غير أن المتتبع لكتابات العقاد في هذا المجال يجده في بعض المواضع الأخرى يربط الفن بالحياة على نحو آخر ، فيقرر أن الفن تعبير ، والتعبير تلحظ فيه « البواعث » قبل أن تلحظ فيه « الغايات » . وقد تتساءل : لماذا يصرخ المعذب المتالم ، فيكون الجواب : انه قد يصرخ فيدركه على الصراخ منقذ أو مساعد على التعذيب والإيلام ، ولكنه سواء ظفر بهذا أو ذاك إنما صرخ لباعث في نفسه أو جسده ، ولم يصرخ لغاية يتوخاها من إسماع صوته . وقد يسمع صوته ، فيسعد أو يشقى بانتهائه إلى الآذان ، ولكن تحقق النفع أو تحقق الضرر هنا غير مقصود . ومعنى هذا أن « التعبير » في رأي العقاد وظيفة لا حيلة لنا فيها ، لأنه مجرد أثر لحالة تقوم بالنفس ، فتدل عليها بما لديها من وسيلة ناطقة أو صامتة . وسؤال السائل : لماذا نعبر ؟ كسؤاله : لماذا نحس ؟ ولماذا نحيا ؟ لأن الحياة مظهران لا ينفصلان : تأثير من الخارج إلى الداخل هو الحس ، ورد من الداخل إلى الخارج هو التعبير . والكلام

في غايته كالكلام في غاية الحياة . وليس للحياة من غاية وراءها ، لأن وراءها الموت الذي تقف دونه الغايات [1] » .

وهناك سؤال يطل على القارىء هو : هل يكون كل تعبير فنا ؟ أو : هل تكون كل استجابة لمطالب الحياة « تعبيراً » ؟ يجيبنا العقاد على ذلك السؤال بقوله : « إذا بحثنا عن الأدب ، فلنبحث عن شيئين لا يعنينا بعدهما مزيد وإن وجـــد المزيد : أهناك باعث صحيـح ؟ أهناك تعبير جميل ؟ فإن وجد الباعث والتعبير فقد أدى الأدب رسالته ، ويبقى على الدنيا أن تستفيد منها إن شاءت ، وهي تستفيد بمشيئتها وبغير مشيئتها من كل عمل يجري على سنة الحياة » .

يقول الدكتور زكريا ابراهيم معقباً على هذا : « إن العقاد ليساير أناتول فرانس فيقول معه إن الجمال الفني سهل ، وانه على قدر سهولته يكون نصيبه من الجمال . ولكننا بمجرد ما نحكم بأن أسهل الفنون هو أجملها ، فإن السؤال لا بد من أن يثار : ما هو المقصود بالسهولة في هذه الحال ؟ « فلو كان المقصود أن يكون سهلاً على جميع الناس ، لخرج من الفنون العليا فن المتنبي وأبي العلاء وابن الرومي والبحتري وهومر وجيتي وشكسبير ، وارتقى إلى ذروة هذه الفنون كل نظام من سوقة الجماهير يطربهم بالأزجال والمواويل » ولكن من المؤكد أن الفن ليس

(١) مقال للعقاد بعنوان أسئلة وأجوبة نشره سنة ١٩٤٤ .

سهلاً على جميع الناس ، بل هو سهل على أولئك الذين استعدوا بفطرتهم وتهذيبهم لفهم الجمال الرفيع في آيات مبدعيه والمعبرين عنه من الشعراء والأدباء والفنانين . وكثيراً ما يقال إن « الفن عام » بمعنى أنه تراث عالمي ، أو تراث إنساني يقاس بمقاييس الإنسانية جمعاء ، ولكن ليس معنى هذا إنه خلق للعامة وكل من يعقل ولا يعقل على السواء ، وإنما معناه أن الفن الرفيع إنساني يروق للممتازين من بني الإنسان في جميع العصور . فالقول بأن الفن « عام » إنما يعني عند العقاد أنه للخاصة في جميع الأزمان ، وليس للخاصة في زمن واحد أو بيئة واحدة » .

وربما يظن بعض المتعجلين أن في قول العقاد هـذا نزعة من الارستقراطية في حكمـه على الفن . لذلك نراه قد تكفل بالرد على أصحاب تلك الظنون حينما كتب يقول :

« إن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الأذكياء أكثر من الأغبياء ، وأن أصحاب الأذواق أكثر من المحرومين منها ، وأن دقائق البلاغة وأسرار الجمال أخفى من البلاغة الشائعة والجمال المبذول ، وأن الإنسان بالفطرة والتعليم معـاً أرجح من الإنسان بالتعليم وحده أو بالفطرة وحدها [١] » .

---

(١) مقال للعقاد بعنوان « الفن عام : نعم ، ولكن بأي معنى ؟ » نشر سنة ١٩٤٥ .

ويتضح من قراءة مقال العقاد كاملاً انه لا يستكثر على الجمهور القدرة على تذوق مبدعات الفن ، ولكن على شرط أن نكون قد قدمنا له من وسائل التربية الفنية مـــا يسهل عليه مهمة التمييز بين الغث والسمين . فالعقاد لا يأبى أن يكون الفن عاماً ، لأنه يرى أنه ليس ثمة ما يبرر أن يستأثر به أناس دون أناس ، اللهم إلا بوجـــه الحق والاستعداد ، ولكنه يأبى في الوقت ذاته أن يعمم الفن ليسقط فيه الرفيع إلى منزلة الوضيع ، فإن زواله عندئذ لن يكون إلا خيراً من بقائه على هذا الحال .

ولما كان من الواقع المتفق عليه أو شبه المتفق عليه أن أنصبة الناس في الحرية مختلفة ، ولما كان الفن بمعنى من المعاني هو الحرية ، فليس بدعاً أن نرى العقاد يجعل من النشاط الفني ميزة ينفرد بهـــا الممتازون من بني الإنسان في جميع العصور . حقاً ان الفن تعبير عن الحياة ، والحياة ــ في رأي العقاد ــ أوسع من أن تنحصر في غرض واحد أو تعتكف على سنة واحدة ، وبالتالي فإنه ليس أوسع من شعور الأحياء بالحياة ، وليس أوسع من تعبـــير الفنانين عنها ، ولكن من المؤكد مع ذلك أن قدرة المرء على التعبير عن الحيـــاة إنما تتناسب تناسباً طردياً مع مـــدى تحرره من ضرورات العيش واحتياجات الحياة العملية ، نظراً لأنه في قيامه بهذه الأعمال مضطر لا اختيار له في أدائها أو عدم أدائها ، ما دامت الحاجة تضطره إلى القيام بها ، رضي أو لم يرض . أما حينما يقف الإنسان من الحياة موقفاً إيجابيـــاً

أو حين يتسنى له أن ينتقل من مستوى الطعام والكساء والمأوى إلى مستوى الفكر والذوق والشعور ، فهناك لا بد لنشاطه من أن يستحيل إلى خلق وإبداع ، بدلاً من أن يقف عند مرتبة الحاجة والإشباع . ولذلك فإن النشاط الفني الصحيح لا بد من أن يمتد بصاحبه إلى ما وراء حدود الضرورة والحاجة ، ما دام من طبيعة هذا النشاط أن يجيء معبراً عن النزوع نحو الحرية والرغبة في تحقيق الذات .

ونرى العقاد يمضي إلى أبعد من هذا فيربط السلوك الأخلاقي بالنشاط الجمالي ، ويقرر أن جمال الأخلاق إنما يتمثل في التغلب على الهوى ، والترفع عن الضرورة ، والقدرة على تصريف أعمال النفس في دائرة الحرية والاختيار ، وتلك سمات الشخصية القوية الحرة ، إن لم تكن بمعنى من المعاني صفات « الفنان المبدع » .

يمكننا بعد ما تقدم أن نلخص في شيء من الإيجاز رأي العقاد في فلسفة الجمال والحب في كلمات معدودات حيث يقول :

« الجمال هو الحرية » ويفسر قوله هذا عندما يقول : « إن الوظيفة تخلق العضو » وهذه حقيقة مقررة . فالإنسان لا يمشي لأن له قدمين ، بل هو له قدمان لأنه أراد أن يمشي ، وهو لا ينظر لأن له عينين ، بل هو ذو عينين لأنه أراد أن ينظر ، وهكذا قل في جميع الأعضاء والجوارح .

فالحياة إذن وظيفة أو وظائف ، والأجسام وأعضاؤها هي أدوات هذه الوظائف التي تعمل بها ، وآلاتها التي تبرز فيها حركتها وشعورها .

وعلى حسب الحياة يكون الجسد أو تكون أعضاؤه ، وكلما كانت وظائف الحيـــاة غير معتاقة في حركتها كانت الأعضاء صحيحة حسنة الأداء . . . وكان عمل الحيـــاة بها سهلاً ، وحريتها فيها أكمل ، وكلما كان العضو سهلاً لعمل الحياة كان مؤدياً لغرضه ، موضوعاً في موضعه ، وكان مبرأً من النقص والعيب . فهو العضو الذي يجاوب مطالب الحياة ويحقق لها حريتها ، وهو العضو الجميل .

يقولون : « إن الجمال هو التناسب » وهذا صحيـح ، ولكن ما هو التناسب ؟ ولأي شيء يعجبنا ؟ ومتى يكون الجسم متناســباً فنراه جميلاً ؟؟

إن التناسب هو أن لا يزيد عضو أو ينقص في الحجم والشكل ، فلا يكون أضخم ولا أنحف ولا أطول ولا أقصر ولا مختلفـــاً في التركيب واللون عما ينبغي . هذا هو التناسب ، وليس هو غاية في ذاته كما نرى ، لأننا نحتاج إلى تعرف « ما ينبغي » للأعضاء حتى نعرف الحجم والشكل الذي يناسبها ، أي أن هناك غاية أخرى يكون التناسب تابعاً لها ومنظوراً فيه إليها ، فما هي الغاية ؟ ؟ وأي شيء تكون غير وظيفة الحياة التي يتكون الجسم لتأديتها . .

إن الجسم الجميل هو الجسم الحر ، وما من حسناء إلا وهي تعلم ذلك بفطرتها ، فلا تعدل بالرشاقة صفة من صفات الملاحة ، وليست خفة الحركة إلا الدليل على أن وظائف الحياة حرة في جسدها تخطو وتلتفت وتشير وتختال بلا كلفة ولا معاناة ، وتزن نفسها في أعضائها بميزان لا خلل فيه ولا نقص يعتريه .

ثم يسأل العقاد نفسه ذلك السؤال الذي يجول بالخواطر : لماذا يكون الجمال في الشباب أجمل وأحب إلى النفوس ؟

ويجيب على السؤال قائلاً : ذلك لأن الشباب هو سن اللعب وانطلاق الحياة في سبيل الاكتمال والنماء بلا وقوف ولا ركود . فهو سن تملك فيها وظائف الحياة من الحرية ما ليست تملكه في سن أخرى ، وتقل فيها آفات الجسم وعوائقه ، فتثب وظائف الحياة وثباً وتعتلج اعتلاجاً ، وأما ما يلي ذلك من أدوار العمر ، فتلك هي الأدوار التي تقف فيها الحياة أو تتقهقر ، فلا يكون الحب حينئذٍ إلا متعة خالية من ذلك الشوق والتطلع الذي يلتهب به حب الشباب ، ولا تكون المتعة إلا جسدية لا معنى لها من جانب النفس ، ولا صورة فيها من دفعة الحرية .

ولو أنك تأملت سر حنين الشيوخ إلى الشباب ورغبتهم في الاتصال به والاقتباس منه لرأيت أن أحب ما يحبون منه ذلك الغرور المتقحم الذي لا يحفل ولا يتهيب ، وان أسر ما يسرهم منه هو أنه

يركب هواه ، ويصنع ما يريد ، أي انه حر منطلق لا كالشيخوخة التي لا تهتم بشيء إلا قام بينها وبينه ألف سد من الضعف والحذر والفتور .

ويخلص العقاد إلى أن الجمال في الجسم الإنساني هو حرية وظائف الحياة فيه وسهولة مجراها ومطاوعة أعضاء الجسم لأغراضها ، وقيام هذه الأعضاء مقام الأدوات الملبية لكل إشارة من إشاراتها . وإننا نحب الحرية حين نحب الجمال ، وأننا أحرار حين نعشق من قلوب سليمة صافية ، فلا سلطان علينا لغير الحرية التي نهيم بها ، ولا قيود في أيدينا غير قيودها[1] .

وأما عن الحب ، فإننا نرى للعقاد رأياً فيه لا يقل في خطورته عن رأيه في الجمال . فهو يقول عنه : « ومما لا مراء فيه أن الحب يرينا من فتنة الحياة ما لا نراه بغيره وأن جمال المرأة أغلى محاسن هذه الدنيا المشهورة . بيد أن الحب لا يخلق فتنة الحياة وليس جمال المرأة هو كل ما في الدنيا من المحاسن ، ولكنهما يصبغان الدنيا بهذه الصبغة لأنهما يوقظان القلب ويذكيان الشعور ويبعثان كوامن الوجدان فيتفتح لما حوله ويرى ما لم يكن يراه ، ويستوعب ما كان يلمحه بطرف العين

---

(١) يراجع «مطالعات في الكتب والحياة» للعقاد طبعة دار الكتاب العربي بيروت صفحة ٣٧١ .

ويستحسن ما كان في غفلة عن حسنه قبل أن تتراءى الدنيا لخواطره في ثوبها الجديد . وكذلك تفعل الخمر حين تركض بالشعور وتلهب الدم فإنها تري النشوان من المحاسن ما لم يكن يراه في صحوه وتضاعف إحساسه وعطفه فيشعر بسرور هذا العطف في داخل نفسه ويشعر في الدنيا ببهجة تخفى على من حوله . ولذلك قيل ان الحب سكر ، أو انه ضرب من الجنون [1] ».

ويتألق العقاد حينما يصور الحب ويعرفه بقوله : « فيه من حنان الأبوة ، ومن مودة الصديق ، ومن يقظة الساهر ، ومن ضلال الحالم ، ومن الصدق والوهم ، ومن الأثرة والإيثار ، ومن المشيئة والاضطرار ، ومن الغرور والهوان ، ومن الرجاء والقنوط ، ومن اللذة والعذاب ، ومن البراءة والإثم ، ومن الفرد الواحد ، ومن الزوجين المتقابلين ، والمجتمع المتعدد ، والنوع الإنساني الخالد على مدى الأجيال ...

يسألونك عن الحب ، قل هو اندفاع جسد إلى جسد ، واندفاع روح إلى روح ... ويسألونك عن الروح فماذا تقول ؟ ...

قل هو من أمر ربي .. خالق الأرواح !

لهذه الكثرة الزاخرة في عناصر الحب ، تكثر العجائب في

---

(١) « مراجعات في الآداب والفنون » للعقاد طبعة بيروت ص ٦٩ .

العلاقات بين المحبين . . فيجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال أنهما يجتمعان . .

ويتكرر الحب في حياة الإنسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالأمس في معظم المزايا ومعظم الصفات . .

ويتقارب البعيدان ، ويتباعد القريبان ، ويتجدد القلبان بين آونة وأخرى كأنهما من طبيعة الجان ، والواقع أن العاطفة حرارة ونار ، ولا فرق بين طبيعة الجان وطبيعة النيران .

وخلاصة التجارب كلها في الحب انك لا تحب حين تختار ولا تختار حين تحب ، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت[1] . .

ودواوين العقاد الشعرية مليئة بأثر المرأة وجمالها . فالمتصفح لتلك الدواوين يراه يصف المرأة في ديوانه الأول « يقظة الصباح » بقوله :

وحبيبة منهن تحسبها ... في الماء صورة كوكب يسري
فضيـة الأوصال مفرغة ... في الحسن من فرع إلى ظفر
لو ذاب جسم من نعومته ... في الماء ذابت وهي لا تدري
كالجمر خـداها فإن سبحت ... في الماء زاد توهج الجمر[2]

---

(١) « أنا » للعقاد ، طبعة بيروت ص ١٨٩ وما بعدها .

(٢) ديوان العقاد ص ٥٩ طبعة أولى .

ويقول في موضع آخر إن الجمال يحييه عندما هام بجمال فتاة تدعوه بلسان جمالها أن يلقاها كل يوم ، ولكنها كانت تقصيه عنها كلما اقترب منها .

يقول العقاد :

يا من إلى البعد يدعوني ويهجرني   اسكت لساناً إلى لقياك يدعوني
اسكت لسان جمال فيك اسمعه   في كل يوم بأن ألقاك يغريني
أبا الجمال تنـــاديني وتجذبني   وبالمقال تجافيني وتقصيــــني

ويتمنى العقاد في موضع آخر أن يكون له ألف قلب حتى يستوعب جمال فتاته الجميلة ، ولا يترك لها فرصة مع غيره من العشاق ويتمنى أن يكون له ألف عين حتى يراها بها في كل جهة ذهبت اليها . يقول :

يـــا ليت لي الف قلب   تغنيك عن كل قلب
وليت لي الف عــين   تراك من كل صوب

ونراه في موضع آخر يعلن عن الحاسة الشعرية المزودة بالجمال ، تلك التي تملأ نفسه الشاعرة . ويقول إن دوره في هذا المجال أن يجيد في المقال كلما أجاد الله في خلق ذلك الجمال ، وأن جزاءه وأجره عند الربيع والخدود الجميلة .

نحن قوم يا حبيبي قد خلقنا   للجمال
إن أجاد الله في الخلق أجدنا   في المقال

صاغنا الـــله لشدو وغناء حيث كنا
ونهانا عن جمود وجفاء فانتهيـــنا

* * *

قال غنوا وصفوا خلقي البديع في القصيد
واطلبوا أجركم عنـــد الربيع والخدود (١)

ويرى العقاد أن الحلال هو الجمال ، أما الحرام فهو القبح ، لذلك فالحلال خير والقبح شر ، وان من يتجنب أن يشوه جميلاً أو ينقص كاملاً فهو في حل من أن يصنع كل شيء بعد ذلك :

شرعك الحسن فما لا يحسن فهو يحلو ، وإن حل الحرام
ليس في الحـــق أثام بيّـن غير مسخ الحسن أو نقص التمام

وفي موضع آخر نرى العقاد لا يرى الدنيا إلا من خلال العيون الجميلة فيقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى حبذا الدنيا على نور العيون
هي كالراووق للنور فـــلا صفو إلا صفوها العذب المصون

ويضيف في موضع آخر أن الدنيا لا يريها له نور الليالي بقدر ما تريها له عيون محبوبته التي غضت جفنيها حياء :

---

(١) ديوان العقاد طبعة أولى ص ٢٠ .

لا أرى الدنيا على نور الليالي الغابرات
أين ؟ لا بل ندع الدنيا وراء الحجرات
نورنا الليلة مصباح وليـد اللمحات
غض جفنيه حياء من غضيض النظرات

ويقيم العقاد في ديوانه « وحي الأربعين » مباراة في مزايا الشفاه فيقول :

لسنا شفاها ففاضت سنى وجرنا على جائر فاعتدل
ومنا تذوقون طعم الحيا ة،وهل طعمها غير طعم القبل
تسمونها قبـلة واسمها رحيق الخلود وريا الأمل [1]



(١) وحي الأربعين للعقاد ص ١٠١ .

تجارب خاطفة

لماذا عزف العقاد عن الزواج ؟ !

سؤال تردد في نفوس الكثيرين من قرائه وقارئاته بالذات. بل لا أبالغ إذا قلت إن هذا السؤال قد طرح على العقاد في ندوات الجمعة التي كان يعقدها في بيته أكثر من ألف مرة . فما من صحفية زارته إلا وكان عدم زواجه وأسبابه من الأسئلة الأولى التي وجهت له . فكان في كل مرة يضحك بملء شدقيه . والذي أذكره ويذكره رواد ندوته أن إجابته على ذلك السؤال المعتاد كانت دائماً مقنعة جداً . فقد كانت خلاصة تلك الإجابة أنه حينما أراد الزواج لم يجد الوسيلة وحين توفرت الوسيلة انعدمت الإرادة . وأن اشتغاله بالسياسة في شبابه جعله لا يطمئن إلى الزواج مع تهديده دائماً بالاعتقال والسجن ومحاربة في الرزق من جراء حملاته على رجال السياسة في العهود الماضية .

وقد قال تلميذه طاهر الجبلاوي في كتابه « في صحبة العقاد » إنه سأله يوماً عن السبب في عدم زواجه وكان جوابه له : أنه لا يكره الزواج ولا يأباه ، فهو سنة الحياة ، والطريق الطبيعي لقيام الأسرة ولكنه طبع على ألا يشاركه أحد في حياته ، ولا يطيق هذه المشاركة التي يراها عسيرة عليه وعلى من تريد أن تشاركه هذه الحياة [1] » .

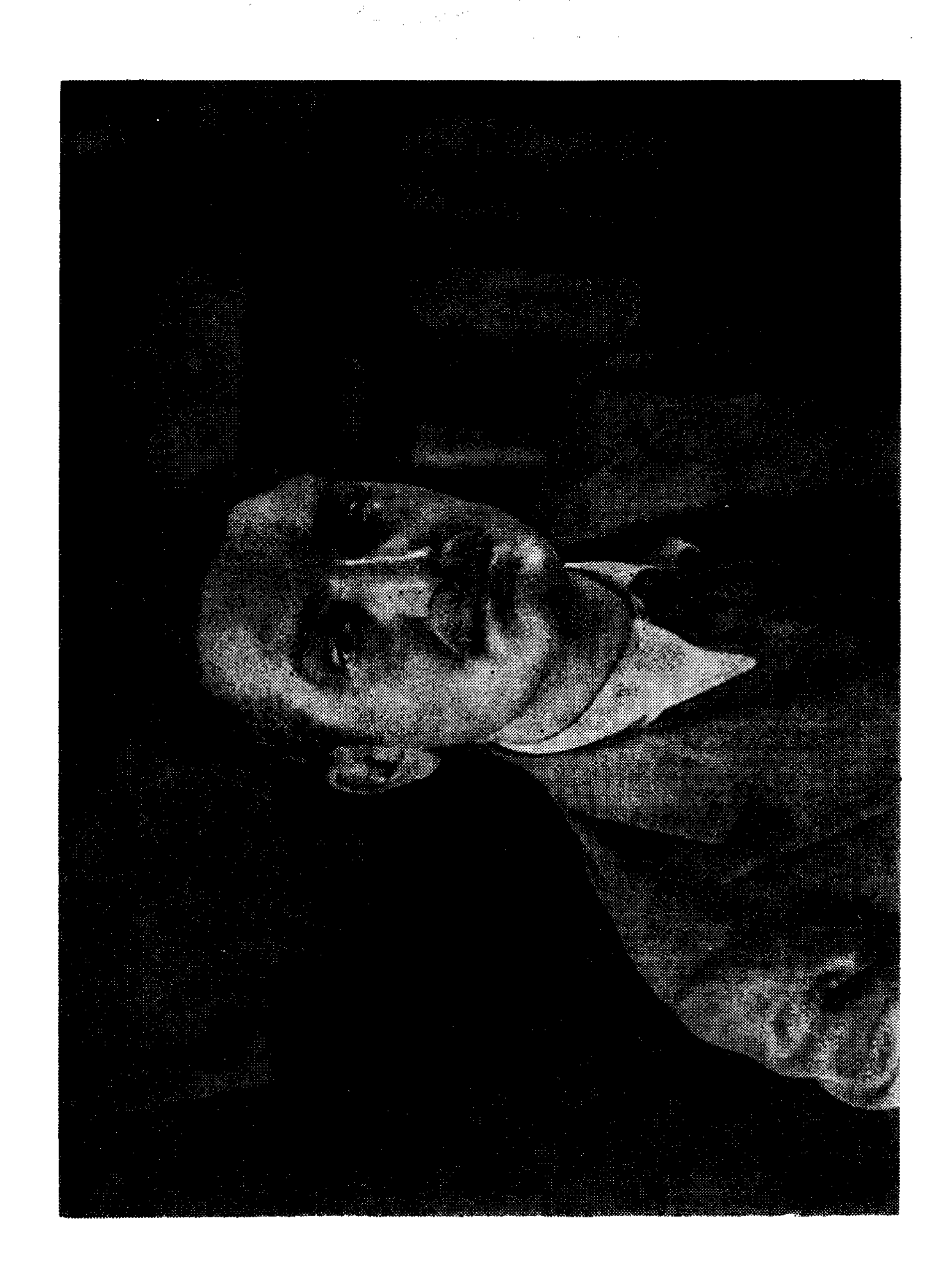
لقد طبع العقاد على أن يتحمل آلامه وحده ، وما أكثر تلك الآلام ! وطبع على أن يغامر في الحياة وحده ، وما أكثر تلك المغامرات !

بدأت فتنة العقاد بالمرأة في سن مبكرة من حياته فقد روى في كتابه « أنا » قائلاً :

« وأجمل المناظر التي تحتفظ بها الذاكرة ، من ذخائر العاشرة ــ وما دونها ــ منظر فتاة أوربية هيفاء ، لفت نظري أنها تسير في وسط المدينة ــ على غير عادات السائحين والسائحات ، وتدير على خصرها حزاماً أو « مشداً » لا يزيد قطره على بضعة قراريط ، وتخطر في الطريق الوعر كأنها تلمس أغصان الشجر بقدمي قطاة .

---

(١) « في صحبة العقاد » ، ص ١٣٥ الطاهر الجبلاوي .



ولم أكن أفهم يومئذ أن نحافة الخصر جمال محبوب ، ولكنني فهمت أنه أعجوبة نادرة ، وتبعت الفتاة الهيفاء ، حول منعطفات الطريق ولا أعلم لماذا أتبعها ، ولا يدور في خلدي خاطر غير الاستزادة من هذا المنظر العجيب الرشيق .

ولو إنني مصور لاستطعت اليوم أن أصور هذه الفتاة من الذاكرة ، فلا أخطىء منها لمحة يثبتها المصور على قرطاسه ، ولست أذكر اليوم نقوش كسوتها ، لكني إذا أثبتها بجملتها لم تخالف ما يثبته المصور من نقوش الكساء على البعد ويقنع به الناظرون[1] »

ومن اليقين الثابت أن تقول إن المرأة التي دخلت قلب العقاد في بداية حياته امرأة مجهولة أو أكثر من امرأة مجهولة رآها في أسوان أو الزقازيق أو الفيوم حيث كانت بداية رحلته في عالم الوظيفة شاباً يافعاً لم يتجاوز العشرين من عمره . ولو ذهبنا نتقصى أخبارهن لما عدنا إلا بما قاله هو عنهن شعراً في الجزء الأول والثاني سنة ١٩١٦ ــ ١٩١٧ من ديوانه تحت العناوين الآتية :

لسان الجمال ــ مفاجأة ــ متى ــ الحب الأول ــ ليلة الوداع ــ خواطر الأرق .

---

(١) «أنا» ، للعقاد ص ٤٧ .

وحتى صديق عمره لم يستطع أن يقول لنا شيئاً عن هذا الحب المبكر لصديقه ، وكل الذي قاله لنا :

« ويقف العقاد في حبه الأول عند هذه الشواطىء التي تجاذبه نحو الخضم ولا تدفعه إليه وتجرفه في لجه العميقة [1] » .

لقد كانت تلك الانعكاسات العاطفية بالنسبة للعقاد أشبه بذلك الشيء الذي يدفىء القلب بالنيران ولا يحرقه فأمست إذا ما قورنت بتجاربه العاطفية فيما بعد ظلالاً أو شبه ظلال ، ولكن لا يمكن للباحث المدقق أن يتخطاها ، وهي بمثابة الأعتاب الأولى التي وطئت أقدام كيوبيد عليها ، قبل أن يدخل إلى عالم القلب والوجدان من المفكر العملاق .



(١) في صحبة العقاد : طاهر الجبلاوي ط أولى – الانجلو المصرية ص ١٣٨ .

الآنسة ميّ

عرف قلب العقاد طريقه إلى الحب حينما كان يخطو نحو الثلاثين من عمره . . أديب شاب ناضج وسيم يملأ اسمه عالم الصحافة والأدب . وكان طرفه الآخر أديبة ألمعية شابة ، وصفت نفسها في إحدى رسائلها لصديقاتها بقولها :

« . . . أصحيح أنك لم تهتدي إلى صورتي .. فهاكها : استحضري فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندي ، كما يقول الشعراء ، أو كالمسك كما يقول متيم العامرية ، وضعي عليها طابعاً سديمياً ــ فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض ــ من وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي ، وعطش روحي لا يرتوي . يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور واستعداد أكبر للشجن والألم ــ وهذا هو

الغالب دوماً ـ وأطلقي على المجموع اسم « مي » تريْ من يساجلك الساعة قلمها . . »[1]

ووصفت السيدة هدى شعراوي تلك الأنثى بقولها : « كانت كل حاسة من حواسها أو جارحة من جوارحها تنم عن ذلك الذكاء . فعيناها اللامعتان ، وتعبيرها الحار ، ولطف إشارتها ، وحسن حديثها ، كل ذلك ينم على ذكائها كما ينم المسك على المسك . تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها ، وتنقلك إلى صفها . . وكان فيها إلى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواس رقيقة من اللطف والدعة واللين والرقة[2] » .

ووصفها أحد الأدباء الذين عرفوها بقوله : إن مياً في صورتها كانت مثل نغم ميلودي منسجم ، كل لحن فيه على حدة يجود بصوت ، وفي ائتلافه نغم ملائكي واحد ، كذلك كانت هيئة ميّ وملامحها ، فعيناها تحيران بما فيهما من شعاع ، وأنفها الأقنى الذي يمسك بعصا ناظم الجوقة يؤلف قسمات وجهها الذي يحتل فيه الفم الوردي عطر أنوثتها وبسمة فنها[3] » .

---

(١) مي أديبة الشرق والعروبة لمحمد عبد الغني حسن صفحة ١١ .
(٢) نفس المرجع السابق صفحة ١٣ .
(٣) مي زيادة في حياتها وآثارها لوداد سكاكيني ــ دار المعارف ص ٢٤ .

وذكرت الأديبة السورية وداد سكاكيني وصفاً لمي في كتابها عنها فقالت : « كانت صورة وجهها تلوح وتتحرك بسر ترتبط به أغوار نفسها ، وكانت هذه النفس مثل نبع كهربي يعطي النور وجهها الصبوح ، وفي الغواني الحسان وجـوه تستهوي الأعين بجلودها وملامحها كما تستهوي الصور المرسومة والتماثيل المنحوتة لفاتنات سابيات ، لكن الجمال فيها منعزل عن باطنه الحي وسره المفقود » .

كانت تلك المحبوبة هي الآنسة « ماري إلياس زيادة » التي عرفت في المحيط الأدبي « بمي زيادة » ورغم أن الحجاب كان مضروباً على المرأة حينما نزلت « مي » القاهرة إلا أنها كانت من أوائل النساء اللاتي فتحن الصالونات كتلك التي كانت معروفة بفرنسا فاستقبلت فيه أعلام الفكر والأدب ، يجلسون فيتناقشون في شتى الموضوعات ، وتديره صاحبته الجذابة بلباقة عرفت فيها آنذاك فلا يحدث صدام في الرأي أو اختلاف ، وذلك لأن رواده جميعاً كانوا يحرصون على إرضاء صاحبته . . . بل كان كل منهم يخلو إلى نفسه بعد انفضاض الندوة ، فيتمثل تلك النظرات الحلوة وذلك الحديث العذب والجمال الفتان فيترجم ذلك كله إلى قصيدة غزل أو رسالة يبعث بها بالبريد . فاجتمع لتلك الفتاة آلاف الرسائل الغرامية والقصائد الغزلية التي تبارى في كتابتها إليها كل

من لطفي السيد ، عبد العزيز فهمي ، شبلي شميل ، سليمان البستاني ، أحمد شوقي ، خليل مطران ، أنطون الجميل ، داود بركات ، مصطفى عبد الرازق ، مصطفى صادق الرافعي ، يعقوب صروف ، إدجار جلاد ، إدريس راغب ، منصور فهمي ، المازني وغيرهم الكثيرين من الذين كانوا يغشون صالونها الحافل .

وصف العقاد ذلك الصالون بقوله : « في سجل الأدب « الخاص » من عصر النهضة العربية الحديثة مكان فسيح لصفحات جميلة لا تزال مطوية إلى اليوم ، وإن كانت منها ما يهم أن يطلع إلى عالم النور من طيات الخفاء ..

ونعني بالأدب الخاص ، ذلك الأدب الذي لم يقصد للنشر وإن كان فيه ما يشوق الاطلاع عليه كثيرين غير أصحابه في حياته الخصوصية ، وعلى رأس هذه الصفحات صفحة « الندوة » التي كانت تعقدها نابغة جيلها « ماري زيادة » ، وقد اختارت لتوقيعها الأدبي إسم « مي » من الحرفين الأول والأخير في اسمها بدفتر الميلاد ، وتأتي هذه الصفحة على رأس أمثالها بين صفحات هذا الأدب الخاص ، لمكان « مي » من نهضة الأدب ونهضة المرأة في آن .

لو جمعت الأحاديث التي دارت في ندوة « مي » لتألفت منها

مكتبة عصرية تقابل مكتبة « العقد الفريد » ومكتبة « الأغاني » في الثقافتين الأندلسية والعباسية .

ولو جمعت الرسائل التي كتبتها « مي » أو كتبت إليها من نوع هذا الأدب الخاص لتمت بها ذخيرة لا نظير لها في آدابنا العربية ، وربما قل نظيرها عند الأمم الأوربية التي تصدرت فيها المرأة مجالس الأزياء الأدبية والأزياء الاجتماعية ، إلا أن يكون ذلك في عصر « الصالونات » أو عصر النهضة منذ القرن السابع عشر إلى ما قبل القرن العشرين .

وعند مي – على ما نعلم – أنماط عديدة من الرسائل التي تسللت في عداد هذا الأدب الخاص ولا ندري أين موضعها الآن ، وإن كنا نخشى أن تكون قد أحرقتها أو ردتها إلى كتابها لتسترد منهم كتبها إليهم ، كما صنعت في غمرة من غمرات الحزن ، غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها ..

ولكن الذي بقي منها في موضعه أو عند أصحابه ، يساوي الجهد الجميل الذي يبذل في جمعه وإنقاذه ، وتسليمه لأصحاب الحق الأخير فيه ، وهم قراء الآداب ومحبو الفنون [1] »

---

(١) « رجال عرفتهم » للعقاد صفحة ٢٠٨ – ٢٠٩ .

ولم يكن العقاد يختلف عن أصحابه في مغازلة تلك الأديبة الألمعية في رسائله الأولى إليها . . تلك التي كان يبعثها بالبريد ، وكان يلتقي بها بعد ذلك فلا يرى منها ما يدل على وصول رسالته ، أو ما يدل على أنه صنع شيئاً ، فيضطر إلى مغازلتها فتقابل غزله بإيماءة من أصابعها كالمنذرة المتوعدة ، ينظر إلى عينيها ويطيل النظر إليها فتزداد حيرته لأنه لا يدري إن كانت تستزيده أم تنهاه . ولكن كل الذي كان يدركه تمام الإدراك أن الزيادة في هـذا المجال ترتفع بالنغمة التي يعزفها إلى مقام النشوز فيؤثر الصمت عن الاسترسال في الكلام ولكن إلى حين . فيعاود كتابة الرسائل إليها ويبثها خلال سطورها الشوق والوجد والأمل . ويلتقي بها فتزداد حيرته وتساوره الشكوك شأن كل محب عاشق لا سيما حينما يكون سلوكه مع المحبوبة نفس سلوك العقاد .. يقف حائراً بينه وبين نفسه لأنه لا يرى من محبوبته ما ينم عن استياء ، بل لا يسمع منها ما يدل على وصول رسالته وإن كان يسمع الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح .

باختصار كانا ـ أي العقاد ومي ـ يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل ، ولا يزيدان . . كانا أشبه بالنجمين السيارين في المنظومة الواحدة ، لا يزالان يحومان

في نطاق واحد ، ويتجاذبان حول محور واحد ، ولكنهما يحذران التقارب . . لأنه اصطدام !

ورغم أن العقاد قد خلد جميع محبوباته بما كتبه عنهن إلا أنه لم يكتب عن علاقاته « بمي » كتاباً كاملاً كما كتب عن محبوبته الثانية « سارة » . ورغم هذا كله فقد ذكر علاقته (بمي) في أكثر من موضع وهو يروي لقرائه قصة حبه « لسارة » وفي ذلك يقول :

« كان همام – أي عباس – يحب امرأة أخرى حين التقى بسارة في بيت ماريانا : يحبها الحب الذي جعله ينتظر الرسالة أو حديث التلفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكانا كثيراً ما يتراسلان أو يتحدثان ، وكثيراً ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل إيثاراً للتقية واجتناباً للقال والقيل وتهدئة من جماح العاطفة إذا خافا عليها الانقطاع . ولكنهما في جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان بأهداب الأغصان أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق ... »[1] .

---

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية ص ١٦٨ .

وقد عقد العقاد في رواية « سارة » مقارنة بين « مي » و « سارة » فقال :

« لقد كانت سارة وهند[1] على مثالين من الأنوثة متناقضين : كلتاهما أنثى حقاً لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحل محل الثانية ، ويوشك أن تزدريها .

فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية في ساحة الطبيعة ، فهند قد خلقت راهبة في دير ، من غير حاجة إلى الدير !!

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجوهر .

الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة إذا لم تكن هي وحدها الشفاعة المقبولة . أما عند سارة فالشفاعة الأولى ، بل الشفاعة العليا هي النعيم والسرور .

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .

تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب في بقاء الشرور تستديم

---

(١) اسم هند في القصة هو « مي » في الواقع كما صرح العقاد في أكثر من مناسبة

بها معاذير الشكوك ، وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيباً فوق نصيبه من الحلوى .

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة ، وتعرضها في معرض الزينة والمباهاة .

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال في هند كالحصن الذي يحيط به الخندق . أما الجمال في سارة فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير ، وهو جزء من البستان ولا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور ...

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف [1] » .

ويضيف الأستاذ سلامة موسى إلى وصف العقاد لمي قوله : « هي ربعة مستديرة الوجه زجاء الحاجبين وطفاء الأهداب ، دعجاء العينين ، يتألق الذكاء في بريقهما . . يجلل وجهها الجميل شعر جثل أسحم ، وتلعب أبداً على شفتيها ابتسامة الخفر . . ولعل زجج حواجبها ووطف أهدابها ، أعلق الأشياء بذاكرة من يراها . وعلى الرغم من سعة اطلاعها واستثارتها لا تزال أبعد النساء عن

---

(١) سارة للعقاد الطبعة الثانية ص ١٧١ – ١٧٢ .

الاسترجال وأشدهن أنثوية . . كثيرة التواضع والاستكانة [1] »

* * *

لقد اعترف العقاد بحبه (لمي) في أكثر من مناسبة وفي أكثر من مجال . فقد ساله يوماً المرحوم الأستاذ طاهر الطناحي عن الحب في حياته فقال :

« لقد أحببت في حياتي مرتين : « سارة » و « مي » . ثم حدثه عن « مي » فقال له : كانت مثقفة ، قوية الحجة ، تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية ، وكان اهتمامها موزعاً بين العلم والأنوثة [2] »

كانت سن العقاد يوم عرف طريقه إلى صالون تلك المحبوبة لا تتجاوز السابعة والعشرين ، وكانت سنها هي يومذاك لا تتجاوز الحادية والعشرين ، ولكن كلاهما كانا نجماً ساطعاً في شباب الأدباء والجيل المثقف الحديث .

وحدث أن سافر إلى أسوان على أثر مرض انتابه في فجر شبابه ، فبعثت إليه برسالة تسأل عن صحته ، وتبلغه فيها تحيات أدباء الصالون الأدبي ، وتمنياتهم الطيبة له بالصحة والعافية ، فرد

---

(١) حديث لسلامه موسى مع مي ـ مجلة المستقبل أغسطس سنة ١٩١٤ .

(٢) « العقاد ، حياته وإيمانه » مقال لطاهر الطناحي ـ الهلال إبريل سنة ١٩٦٤ .

عليها برسالة أخبرها في سطورها قصته مع ذلك الطبيب الألماني الذي كان يزور أسوان برفقة أحد الأمراء الأجانب . وكيف طمأنه على صحته بعد أن فحصه فحصاً دقيقاً وبدد تلك الشكوك التي كانت تساوره من أنه أصيب بمرض صدري ، ويومها رد عليها العقاد من بلدته برسالة جاء فيها :

آنستي الأديبة « مي » ،

أكتب إليك الآن وأنا أقرأ « سبنسر » في « قصر ملا » وهو طلل دارس منصوب للرياح . أقضي فيه الوحدة بين صفحات كتاب ، وقد جمع منظره بين وحشة القدم المتبدد ونضرة الصبا المتجدد . وقامت حوله روضة عالية تعرف باسمه ، ويرتاح إليها الطارق من سآمة ذلك الشبح المهجور في أكمته . وهي رابية أثرية ذات طباق يعلو بعضها فوق بعض ، في كل طبقة منها حياض الأزهار والنوار ، ومنابت العشب والبهار ، تنتهي من بحبوتها العليا إلى جانبها الغربي فتشرف من ثم على النيل ، ويستقبلني الجبل الغربي تليه الجزر والجنادل المعترضة في جوف النهر وهو ينساب بينها انسياباً ، فروعاً وشعاباً . وأجلس بعد الغروب ، فأنظر أمامي إلى المقياس في هيكله القديم ، وإلى النيل يجري وكأنه لا يجري ، وإلى

الجنادل وقد أطلعت رؤوسها على متنه كأنها حيوان يتنسم هواء الليل ، وإلى الجنادل ممتدة على طول الأفق كالديباجة السوداء حول تلك المناظر الساحرة » .

ويستمر العقاد في وصف ذلك القصر لمحبوبته في رسالته فيصف لها كيف كان يزور هذه الأماكن الفينة بعد الفينة ليقضي بين ربوعها هزيعاً من الليل ، وكيف كان يجلس إلى صخر قديم ساوره النيل إعصاراً ثم قنع بمسح أقدامه ، وطغى عليه أعواماً ، فلم يظفر بغير المرور من أمامه . . وكيف كان العقاد يعوض عزلته في ذلك المكان بمساجلة بنات أحلامه ويسامر خلال جلساته تلك عرائس الشعر ، ولله ما أجذلهن وأطربهن ! ثم يختم رسالته لها ذاكراً أنه نظم قصيدة طويلة في ذلك الوصف يقول فيها :

أسوان تزهو حين يذ … بل كل مخضر نضير
في كل مرباة بهـا … نور تألق فوق نور
بـلد تجـود له الطبيعـة بالصغير وبالكبـير
لا يستجن شـموسه … إلا عـلى غير البصير
نسـماته برء العـليل … وماؤه عـذب نمير

* * *

أقام العقاد ببلدته في أقصى الصعيد مدة بعيداً عن القاهرة ، وبعيداً عن جلسات محبوبته التي ملأت قلبه . وخلال إقامته تلك يتلقى منها رسالة بدأتها بقول المعري :

عللاني فإن بعض الأماني فنيت والظلام ليس بفاني
إن تناسيتما وداد أناس فاجعلاني من بعض من تذكران
رب ليل كأنه الصبح في الحسن ، وإن كان أسود الطيلسان
قد ركضنا فيه إلى اللهو لما وقف النجم وقفة الحيران

« هكذا قال حكيم المعرة وأنا أعلم مقدماً أنه من أصحابك المقربين ، فرأيت أن أبدأ هذه الرسالة من القاهرة بأبياته عسى أن يكون فيها تذكرة ، وعوضاً عن الوحشة والبعد » .

ثم تحدثت إليه في تلك الرسالة عن ندوتها « صالونها » والحاضرين فيها وأخبرته أن الأستاذ نجيب هواويني لم يحضر الأسبوع الماضي ، وكان الصحب مشوقين إلى فكاهاته ودعاباته الطريفة . وقالت إنها ألقت محاضرة في النادي الشرقي عن فضل مصر على الشرق ، وكانت تتوق إلى أن يسمعها ليقول لها رأيه فيها ، وعلى كل حال ، فإن بعدك في أسوان لا يحول دون إطلاعك على هذه المحاضرة لأنها ستنشر في الصحف وأرجو أن أعرف رأيك فيها .

وخلال تلك الأيام يرسل العقاد « لمي » نسخة من كتاب « الفصول » بعد أن يكتب على غلافه كلمة إهداء تليق بمكانة

المهدى إليها ومكانتها من قلبه . وقد تضمن هذا الكتاب موضوعاً نقدياً كتبه العقاد أول ما كتبه في جريدة « الأهالي » في شهر مايو سنة ١٩١٩ عن « المواكب » لجبران خليل جبران كشف فيه عن أخطاء لغوية وانحراف في الفطرة والطبيعة الشاعرة والخيال السليم . ولما كانت لجبران مكانة عظيمة من نفس « مي » فقد آلمتها قسوة العقاد عليه لا سيا حينما قال عنه في ختام مقالته هذه :

« وعندنا أنه ــ أي جبران ــ لو طرق باب الشعر المنثور لكان ذلك أفسح مجالاً لآرائه وأقرب إلى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون ، وحبذا لو أقل من المعاني الرمزية فإنها بقية من بقايا إيهام الكهان الأقدمين لا يقبلها في العصور الحديثة إلا أشباه أتباع الكهان فيا تصرم من العصور [1] » .

سيدتي الآنسة النابغة «مي»

اقدم مع هذا كتاب الفصول الى سيدتي الآنسة آملا ان يكون لي نصيب من السماح في هذه الفكر المتفرقة والنبذات [illegible] . واني آسف لان طبع الكتاب من [illegible] انا المسؤول عنه لاهمية باجتنابه . اما الجزءان الاول والثاني منه [illegible]

ديوان فاني اغتبط بسؤال الآنسة عنهما وسأبحث عنهما حيث انتظر ان يوجدا واحضرهما الى الآنسة اذا سمحت بزيارة تكون وجهة للتعارف واعرابا عن احترام واعجاب . واني شاكر لها هذه العناية مقدم اليها أجمل التحية والاجلال

المخلص
عباس محمود العقاد

١٠ فبراير ١٩٢٢

(١) « الفصول » للعقاد صفحة ٤٩ .

تلقت الآنسة (مي) رسالة العقاد هذه فأرسلت إليه رسالة تقول فيها بعد الديباجة والتحيات :

« وقد لاحظت قسوتك على جبران خليل جبران وإن كنت أوافقك على بعض ما قلت ، وأعارضك في البعض الآخر . ولا تتسع هذه الرسالة لأن أقول لك ما أوافقك عليه ، وما أعارضك فيه ، واترك ذلك لفرصة أخرى .. وإلى لقاء قريب » . « مي »

ويرسل لها العقاد بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩٢٣ رده من أسوان يقول لها فيه :

أسوان في ٢٩ مارس ١٩٢٣

سيدتي

تلقيت خطاب سيدتي الآنسة مسرورا شاكرا ومر بي الآن في بلدتنا
هذه المشهورة بشدة حرها كما تمر نسمات الشمال في [illegible] الصيف
تروح ولمسات النسيم اللطيفة لوقدة الشمس. وما يجعلني أن أشكو
[illegible] أو غبني في تقدير إذا كان كتاب الفصول ينبغي ثناء
ربما [illegible] الثناء وعطفا جميلا لأن العطف ويجعل له حظوة من
[illegible] المثقف وتعطف النفس الزكية
أصنام ذوي الذوق
ولم أزل أعتقد أن الكتابة الأدبية في بلادنا ما هي إلا
رسائل خاصة يتهاداها عدد [illegible] أو على الأقرب عشرون أو ثلاثون
[illegible] فهم الكاتبون وهم القارئون. وإذا بلغ
من رسالتي في كتاب الفصول أن تصل إلى مكانة من نفس الآنسة

القصص وان تستغرق الا ساعات من وقتها فذلك غنم أتيح لدى
وجزاء نفيس قيم، اما الجمهور فهو شاغل عنه هذه القراءة التي قطعها
بعد العشية بأن الادب يغذي ظمأه ويشغله ساعات عما يتراءى له
من هذه القراءات وليس في ذلك كبير خسارة. نعم ان اقبال الجمهور
قد يوسع نطاق العاطف الادبي وقد يكون في هذه التوسعة شيء منه
الراحة والترفيه، ولكن هل فيها ترقية وتطهير؛ تطهير كذلك الذي
تحبه الآنسة وتعلم نفعها الحاسة انه من عتاد الآلام والتجارب ألا
ذلك ما أشك فيه

وقد تتفق سيدتي الآنسة عن جهة الاختلاف في النظر،
وانه ليبدو لي انه يكون بيننا موضع او مواضع قابلة للاختلاف
في النظر. لأني أرى ان النقاد المتأثرين زيادة في الكمية أما النقاد
المتألفين فزيادة في الصفة والمزية، ولهذا استميح الآنسة أن
احتفظ بباب من ابواب المناقشة ولكنه هو باب المعاني الرمزية
التي تدافع عنها في خطابها تفضلا وبرا منها
وأقول تفضلا وبرا لاني لا أجد الآنسة ملمة في كتابتها
من المعاني الرمزية ولا اتبينها في عباراتها المشرقة الصافية
أثرا للغرام بهذه المعاني. ولكن هناك اختلاف فعلى أي

أم هذا الاختلاف؟! إن في الرأي عندما اعتقد وليس في الطريقة
والرأي الذي أميل إليه أن الرموز مطلوبة من المصور لأنها وسيلة
الوحيدة إلى إبراز المعاني والخواطر وغير مطلوبة من الكاتب الأديب
لأنه الكلمات تغنيه عن الرسوم في الإفصاح عن المعاني والخواطر. ولا بأس
مع هذا بقليل من الرموز إذا كانت تعين على تقريب الفكرة وترسم
في الذهن إلى معنى صحيح تنقاد إليه الطبائع وترضى عنه العقول ولا
تخالف المحسوس. ونظرتي أن الآفاق أوسع صدرا للمعاني الرمزية
من ذلك ولا أعرف رأيك بالتفصيل في هذا الموضوع. فهذا
موضع ثقة

سلامي وأحملها أزجيها إلى ذلك النهر الساحر بالفضل ولي
شوق إلى تلك الأحاديث الطيبة الفذة وأكون شاكرا إذا
سمحت سيدتي بتبليغ تحيتي واحترامي إلى الوالدين الكريمين

المخلص

عباس محمود العقاد

وما إن قرأت (مي) رسالة العقاد حتى بادرت بالرد عليه برسالة بالبريد المستعجل .. أخبرته فيها أنها قصدت الكتابة له على وجه السرعة قبل رحيله من أسوان لتذكره بما وعدها به حينما كان معها بالقاهرة أن لا ينسى حين الوقوف على أطلال « معبد فيلا » إبلاغ تحياتها إلى النيل الخالد بأسوان ـ في ذلك المكان الساحر الذي كانت تتمنى أن تكون بجواره أثناء تسريحه الطرف في مياهه

الذهبية الهادئة . ولم يفتها أن تداعبه في ختام تلك الرسالة لا سيما وقد علمت من بعض أصدقائه أنه قد نوى أن يرشح نفسه لمجلس النواب عن دائرة أسوان . فكتب إليها في ٩ يوليو سنة ١٩٢٣ رسالة بدأها بقوله :

مصر في ٩ يوليه سنة ١٩٢٣

شكراً للسيدة الآنسة على تمنياتها الطيبة وعلى تفسيرها الجميل لكلمة حافظ الرياضية وما قاله في شعره من حساب بغير حساب ... فقد كان بعض الإخوان يقرأون هذا البيت من قصيدة :

ورب لفظ حكيم في مفاوضة   أجدى على مصركم من ألف فدان

فيقولون لي مازحين : ما هذا الادعاء يا صاح ! وهل عندكم في أسوانكم كلها ألف فدان فيكون فيها من يملك هذا القدر ؟ والحق أنهم أدنى إلى الصدق في مزحهم وأن حافظاً جزاه الله قد ظلمني بالتفرقة بيني وبين عمدة بلادنا في مزية الغنى . فإن أسوان أشبه بلاد الله أعيانا بأدبائها وأدباء بوجهائها ... ولكن الآنسة صححت المبالغة وردت حصة العمدة إلى نصف فدان فلها بقية الحقيقة وأنصفتني من منافسي فلم تجعل لهم من مزية علي ، وجاز لي أن أكون بحسبه حسابها من الأعيان فلا أستشفع بالأدب وحده في ترشيحي بأسوان .

وللآنسة على ذلك شكر سأغتنم بأدائه غداً مسرة الحضور بمجلسها والاستماع إليها

المخلص
عباس محمود العقاد

ويعود العقاد إلى القاهرة ويسارع إلى زيارة محبوبته يملأه الشوق والحنين إلى التمتع برؤيتها والائتناس بحديثها العذب الحلو الذي يمس شغاف قلبه . ومع الأيام تقارب القلبان . . قلب العقاد وقلب « مي » فأخذت تخصه ببعض دقائق حياتها وأسرارها ، بل أخذت تبثه صدق إحساسها وجيشان مشاعرها خلال سطور بعض مقالاتها . . وكان بعض رواد الصالون يظنون أنها تعنيهم دون سواهم . لا سيما حينما كتبت فصل « أنت أيها الغريب » فقالت فيه : « سأدعوك أبي وأمي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر وسأدعوك قومي وعشيرتي وأنا أعلم أن هؤلاء ليسوا دوامـاً بالمحبين ، وسأدعوك أخي وصديقي . أنا التي لا أخ لي ولا صديق ، وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة . أنا التي تتخيل فيك قوة الأبطال ومناعة الصناديد ، وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري ، وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل ، وإذ أسيء التصرف وأرتكب ذنباً ما سأسير إليك متواضعة واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة .

وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسخطك عليّ فأتوب على يدك وأمتثل لأمرك ... في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك » .

والذي نرجحه أن مياً كانت تقصد بذلك الغريب عباس العقاد الذي يعيش في القاهرة غريباً عن الأب والأم ، وبينه وبين بقية أسرته آلاف الأميال التي يقطعها القطار في يوم وليلة .. ولا سيما وكانت العلاقة بينهما في هذه الفترة قد امتدت شوطاً كبيراً .

وتدور الأيام دورتها والصديقان يتقاربان . وكوبيد يغزو القلبين ويتسلل إلى النفسين كتسلل نفحات النسيم العابر بأهداب الأغصان .

* * *

يروي العقاد في قصة « سارة » أنه كان يتواعد مع « مي » فيذهبان إلى السينما في مكان لا غبار عليه ويتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها ، ويسهبان ما احتملت الكتابة الإسهاب . ثم يغيران سياق الحديث في غير اقتضاب ولا ابتسار .

وقد سألت العقاد يوماً عن تلك الدار التي كانت تحظى بزيارتهما لمشاهدة العرض فيها ولا سيما حينما يصفها بأنها لا غبار عليها . فمما أذكره أنه أجاب على سؤالي يومذاك : أنهما كانا يذهبان إلى دار توجد في حديقة إحدى الكنائس بحي الظاهر بالقاهرة .. ففي ذهاب الآنسة « مي » إليها وقت الأصيل قبل بداية العرض بمفردها وانتظارها العقاد بها أمر لا يثير شكاً

ممن يراها تقصده لا سيما وأنها كانت تعتنق العقيدة المسيحية . وذهاب الفتاة المسيحية إلى الكنيسة أمر عادي لا يستغربه أحد .

وخلال تلك الايام تشغل المعارك السياسية العقاد عن تلك المحبوبة . . . ولقد كانت معارك طاحنة شهدتها صفحات صحف الوفد وصحف من يعادونه . وبلغت مقالات العقاد التي كتبها ضد عدلي وثروت واسماعيل صدقي قسوة بالغة حتى حذره بعضهم مغبة التمادي .

وقد يعجب القارىء عندما يعلم منا أن تلك القسوة التعبيرية التي سادت مقالات العقاد في تلك الفترة كانت محببة لنفسه لأنها كانت من الأسباب التي تصله بتلك المحبوبة بعد طول غياب . فقد كان يعلم أنه كلما اشتد في هجومه على خصوم سعد زغلول والوفد جاءه صوت « مي » عبر أسلاك التليفون يستعطفه تخفيف تلك الحملات خوفاً عليه من الاعتقال والنفي . . أليس هذا ضرباً من الحب والإخلاص تبادله إياه تلك المحبوبة .

وقد روت القصاصة الأديبة « جاذبية صدقي » في مقال لها عن العقاد : « وقد اعترف لي « العقاد » أنه كان يستخدم مع « مي » إذا ما تشاجرا ـ طريقة واحدة لا يغيرها ، حتى تجيء إليه هارعة تستسمحه وتبدأه الحديث : ويذوب الخصام . . . كان ينشر مقالاً

ملتهباً ثورياً يهاجم به الحكومة القائمة في اندفاع وتهور حتى تخشى عليه « مي » من الاعتقال والسجن . فتهرع إليه وترتمي عند ركبتيه ، تقبل يده ضارعة وتستحلفه أن يكف عن مهاجمة الحكومة . وأضاف العقاد وهو يهتز بفهفهة وعفرتة صبيانية أكثر ما أحبها في الشيوخ : « كم من مرة ظلمت إسماعيل صدقي وثروت لا لشيء إلا لكي تجيئني « مي » تبدؤني الحديث وتنهي الخصام[1] » .

وقد روى – أيضاً – الأستاذ وديع فلسطين ، بانه اقترح على صديقه الكبير المرحوم العقاد بأن يكتب مقالاً عنوانه « موضوعي ، كيف أختاره » فأورد فيه فقرة عن مي كان أسر له بها من قبل ، لكن هذه الفقرة أغفلت عند النشر وهذا نصها : « . . ولا حرج من الاعتراف بأسلوب من أساليب الاختيار لم يكن يخطر على بال أحد من قراء الصحافة السياسية في ذلك الحين ، فقد كتبنا أعنف المقالات في الحملة على بعض الطغاة المرهوبين لأننا كنا على ثقة – بعد كل حملة – من دق الهاتف والاستماع إلى صوت إحدى الأديبات الناصحات بالتقية والتخفيف . . فإذا طال العهد بالاستماع إلى ذلك الصوت ، فالمقالة الأولى على أشدها وأقساها تصيب

---

(١) مجلة القلم السودانية العدد الثامن – سبتمبر سنة ١٩٦٧ ذكرياتي مع العقاد .

الطاغية الذي اشتهر بالنقمة العاجلة بين زمرته القابضين على زمام الأمور .. وقد يكون حقيقاً بها وبما هو أشد منها ، ولكنه لا ينال حقه كله في جميع الأوقات رعاية للنصيحة المشكورة على كره منا ، ثم تحين الفرصة في كل لحظة نريدها لتوفية الرجل حقه وانتظار الهاتف الذي طال به عهد الانتظار [1] » .

اتخذت الرسائل في تلك الأيام بين العقاد و « مي » طابعاً رسمياً . . . كانا يتبادلان رسائل التهنئة بالأعياد وغير ذلك من المناسبات . ونراه يكتب إليها رسالة مؤرخة في ٢٦ ابريل عام ١٩٢٥ يهنئها بالعيد ويشكرها على تهنئتها له بالعيد .

سيـــدتي . . .

تهنئتك هي العيد . فاشكرك شكراً تقصر عنه عبارتي وأهدي إليك باقة من أذكى تحيات العطف والاحترام .. » .

المخلص

عباس محمود العقاد

---

(١) مجلة الأديب اللبنانية ص ٥١ ديسمبر سنة ١٩٦٤ ويراجع مي زيادة في حياتها وآثارها لوداد سكاكيني طبعة دار المعارف – القاهرة ص ١٢٨ .

سيدتي

تهنئتك هي العيد . فأشكرك شكراً تقصر عنه
عبارتي وأهدي إليك بأوفى من أزكى تحيات العطف
والاحترام

المخلص
عباس محمود العقاد

٢٦ ابريل ١٩٥٥

ويجيء الصيف فتسافر تلك المحبوبة إلى إيطاليا ثم تغادرها إلى ألمانيا . وبينما هو جالس في مكتبه بالصحيفة التي يعمل بها يحمل إليه البريد رسالة طويلة منها تصف فيها رحلتها إلى روما ، وتحدثه خلال سطورها عن أهم شيء في نظره وهو المكتبات . وأخبرته فيها أنها عثرت على كتاب للأديب الإيطالي أمانولي وقالت له : « إن رأيت أن أرسله لك أو أن يكون معي لحين عودتي فاكتب إلي بذلك . وسألته عن أخبار القاهرة وأسفت لحرمانها من مناظر النيل الجميلة وقت الأصيل ، ولكنها تتعزى عنها بمناظر الحدائق

التي تطل عليها من نافذة الفندق الذي تنزل فيه . وقالت له « سأحضر لك مجموعة من صور روما العريقة في الفن والجمال والمدنية » . ثم كتبت له وصفاً لينابيع روما في أربع صفحات منفصلة عن الرسالة جعلت عنوانه « نشيد إلى ينابيع روما » أودعت فيه عواطفها الشابة المشبوبة التي تنم عن الحب المكبوت ، وثورة القلب المحروم .

وخلال تلك الأيام يزور العقاد لبنان ، وخلال غيابه عن مصر تحضر « مي » من رحلتها ويقرأ العقاد عن وصولها بالصحف فيكتب إليها من أرض لبنان التي قضت بها سنوات الصبى . ويعكس صفات تلك الأرض على شخصها ويشعر أنها – أي – « مي » – تشبه زهر لبنان في الرونق والبهاء والحسن والإزهار . وإلى جوار تلك الأزهار ماء عذب سلسال ينساب في الخضرة اليانعة والعشب الرفيق . إلا أنه لم يفت شاعريته الحساسة أن تدرك الجوانب الصعبة المراس في تلك المحبوبة . فهي كالنور الساطع المتلألىء أحياناً وكالسحب والغيوم القاتمة أحياناً أخرى . فيقول شعراً :

غريبة الدار عند النيـــل تذكرة
من وامق في ربى لبنان مغترب
بتنا بديلين والدنيـا تبدلنـــا
فيالنا من شريكي موطن عجب

كلاهما نازح في دار صاحبه
وداره في الهوى موصولة السبب
يا بنت لبنان أقريك التحية من
هضاب لبنان . . بين البحر والشهب
أمسيت ضيفك في أرض لبست بها
وشي الصبا وبرود الحسن والطرب
أرى مثالك فيها حيثما طمحت
عيني . . وأخلو به في كل مرتقب
فأنت لبنان في زهر وفي ثمر
وأنت لبنان في ماء وفي عشب
وفي نقيضيه من وعر ومن دمث
وفي مزيجيه من نور ومن سحب

ويذوق العقاد تفاح لبنان ويراه على الأشجار في ألوانه المتعددة فيجد فيه شبهاً بها من ناحية الحسن والجمال فتهيج النفس ويذكرها فيقول فيها شعراً :

وجدت حلواه في قلبي وفي نظري
وما احتوته يدي أو ذاق منه فمي
أذوقه وهيام الشوق يوهمني
إني أذوق الجنى من ثغرك الشبم

يا جنة القلب كم لي فيك من ثمر
سقاه صوب الهوى لا عارض الديم
حسن وحب وتفـــاح وفاكهة
هذا النعيم الذي نبئت في القـدم

يقول الأستاذ عبد الفتاح الديدي عن علاقة العقاد بمي :

« يبدو أن هذه الفتاة لعبت أخطر دور في حياة العقاد لأنها أعطته من السعادة ما لم يكن يخطر له على بال ، ولكنها وقفت أمامه نداً لند وناوأت رجولته وسطوته وكبرياءه . وصدمت أحلام العقاد بفرديتها واستقلالها وشبابها المتأنق المدرك لأصول العلاقات فقال فيها :

لا أنا أعمى فاستريـح ولا أنت من الحسن والصبا عاطل
بأي معـــنى عليك لا تعلق العــين وأنت المــبرأ الكامل
بوجهك الغض أم بقامتك الهيفاء . . ويحي أم خصرك الناحل
أم بسهام العيون تكسرها في حبة القلب أيهـــا القاتل [1]

يعود العقاد من رحلته في ربى لبنان ويلتقي « بمي » ثم بعد أيام يرسل إليها بأبيات يبثها شغفه ويخبرها أنها أصبحت مصدر وحيه وإلهامه فيقول :

---

(١) « عبقرية العقاد » لعبد الفتاح الديدي، الدار القومية للطباعة والنشر، صفحة ١٠٢ .

أعروس أحلامي وملهمتي معنى الحيـــاة وفتنة السحر
كوني ، إذا ما شئت منعمة حوريتي في مقبل العمر

ويرى فيها إلى جانب أنها ملهمة وحيه أنها نضرة كالروض وخفيفة كالطير ورقيقة كالجدول فيقول :

جمعت محاسن في صباك تفرقت في صنعه الخلاق أي تفرق
في الشمس أو في الروض أو في الطير أو في الجدول المترقرق

وتذهب « مي » للحج إلى روما فيبعث إليها قصيدة شعرية رائعة جعل عنوانها إلى « مي » في روما [1] يقول لها في مطلعها :

آل روما لكمو منا الولاء وثنـــاء عاطر بعد ثنـاء
وسلام كلما ضاء لنـــا طالع الإصباح أو جن مساء
في حماكم كعبة ترمقها مهج منـــا وآماق ظماء

وقد عثرت على القصيدة بخط العقاد ضمن أوراقه فرأيت أن أضمنها هذه الصفحات لا سيما وقد ذكرت الأستاذة وداد سكاكيني في كتابها عنها حينما تحدثت عن هذه القصيدة أن العقاد لم ينشرها في ديوان من دواوينه . وهذا القول ليس صحيحاً حيث أنها وردت في ديوانه « وحي الأربعين » مع تصرف منه بالنسبة لاسم « مي » كما ذكرنا في حاشية الصفحة .

---

(١) نشر العقاد هذه القصيدة بعنوان « حجاج روما » في ديوانه « وحي الأربعين » مع تصرف في اسم المحبوبة فذكره في الديوان باسم « حسن » ص ١٣٥ .

إلى «مي» في روما

آل روما لكم منا الولاء — وثناء عاطر بعد ثناء

وسلام كلما ضاء لنا — طالع الإصباح أو جن مساء

في حماكم كعبة ترمقها — مهج منا وآمال ظماء

كعبة لولا التي يعمرها — بينكم ما شطت القوس الخفاء

من حياة هي لو سر بنية — شادها مصر ووشاها طلاء

كرمت روما وذكراها بها — وبنو روما، ومن تحت السماء

نزلت ثم حبيبا داعيا — وهي أولى بحبيب ودعاء

* * *

قبلتي يا «مي» في ذاك الحمى — أنت لا القبلة من ذاك البناء

ورجائي اليوم في مغربها — وجبينك الباسم لا وجه ذكاء

ع

أرقب البدر إذا الليل سجا — فلنا فيه على البعد لقاء

وأرود الشعر في مثل الكرى — فإذا فيه من الطيف عزاء

حلم الصادق! قد يوقظه — وعلى فيه من الآلاء شفاء؟

أنت يا «مي» وهل أنت سوى — حلم في يقظة القلب أضاء؟

المخلص

عباس محمود العقاد

٧ يوليو سنة ١٩٢٥

تلقت « مي » هذه الأبيات وهي في طريقها إلى برلين عاصمة ألمانيا فوجدت فيها نفس الشعور العميق الذي تشعر به نحوه، فبعثت إليه برسالة صريحة عبرت فيها عما تشعر به من حب وهيام ختمتها بقولها :

« لقد أعجبتني أبياتك ، وأبكتني »

وعلى الفور كتب إليها العقاد رسالة مطولة يقول في بعض سطورها :

« سيدتي الآنسة ...

شكرك لي على الأبيات التي تفضلت بقبولها نعمة من نعم السماء وابتسامة في فم الحياة . أتمنى لك من السعادة بقدر ما بعثته في نفسي وبثته في جوانب قلبي . ولست بخيلاً بالدعاء لو تعلمين حين أتمنى لك « بقدر » ما شعرت به ولا أزيد .

عرفت من قبل أن الاخوان حجاج القافلة لن يدعوك في سلام وأنهم لن يتركوك في خلوة مع البحر والليل لأنهم يحملون المدنية معهم أنى ذهبوا وربما حملوها معهم إلى السماء لو صعدوا يوماً إلى السماء . ولكني بعد أن قرأت خطابك ـ وددت لو انك كنت أكثر عناداً مما أردت ، فإني كنت أقرأ كلماتك وسطورك وأخشى أن تنتهي وأود أن تطول إلى غير نهاية . ولكنها انتهت ورأيتك

لسوء حظي قليلة العناد في هذا الموقف ! . فهل تكونين كذلك في كل حين ! ؟ .

وإني أبصرك الساعة بين الماء والسماء فأشعر بوجود الله حقاً ، وأحس بمحضره قريباً ، لأنني لا أستطيع أن أعرف قوة غيره تحمل ذلك المهد السابح الذي أتمثلك فيه طفلة وادعة في أحضان ذلك الحنان السرمدي العظيم ، وسأتمثلك في حجازك من البحر إلى اليابسة وفي طريقك إلى روما ، وفي روما العريقة الخالدة وفي كل مكان ، بل إني أكاد أراك رأي العين في غدوك ورواحك ويقظتك ونومك واجتماعك وانفرادك .. بل ماذا أقول ؟ .. إني لا ينقصني من رؤيتك شيء » .

ثم ختم العقاد رسالته بقوله :

« فإذا سمحت في أن أخطر ببالك هنيهة وأنت هناك سارحة الطرف أمام آية من آيات العبقرية أو عند زاوية من زوايا الكلسيوم أو وسط حجرة من حجرات الكعبة المسيحية أو بين يدي منظر من مناظر الطبيعة الساحرة تحت ضوء القمر الحالم الفريد ـ إذا سمحت لطيفي أن يقف إلى جانبك هنيهة في بقعة من تلك البقاع فذلك أسعد لي ألف مرة من أن أراها بعيني وألمسها بيدي ، وتلك عندي رحلة على أجنحة الملائكة إلى خيال روما

القدسي من طريق عليين . فإذا شهدت روما بعد ذلك فلن يكون شأن أقدس ما فيها من النفائس والآثار أنه الأثر الذي بناه فلان وعبدت فيه الآلهة والأوثان وعاش كذا من الزمان . ولكن سيكون شأنه الأوحد الأسمى أنه الأثر الذي وقفت لديه « مي » وأرتنيه قبل أن أراه بعيني » .



سيدتي الآنسة

شكراً لك على الابتسامات التي تفضلت بقبولها نغمة من نغم السماء وابتسامة في فم الحياة –

أتمنى لك من السعادة بقدر ما يهتز في نفسي و ينقر في جوانب قلبي . ولست بخيلاً بالدعاء

فهو [illegible] حين أتمنى لك «بمقدار» ما شعرت به مرة أخرى

عرفت من قبل أن «الصحراء» [illegible] القافلة في [illegible] في سلام! وأنهم من [illegible] في خلوة مع البحر والليل [illegible] يحملونه المدينة معهم إلى [illegible] وربما حملوها معهم إلى السماء [illegible] إليها إلى السماء – ولكني – بعد أن قرأت خطابك – وددت لو أنك لبثت أكثر [illegible] مما أردت! فإني كنت أقرأ كلماتك وسطورك وأخشى أن تنتهي وأود أن [illegible] إلى غير نهاية . ولكنها انتهت . ورأيتك [illegible] قليلاً العناد في هذا الموقف!

[illegible] ذلك وكم [illegible] !!

فهل [illegible] فأشعر بوجود الحقيقة وأن [illegible] وأن [illegible] بين الماء والسماء [illegible] الذي

قريباً [illegible] لا أستطيع أن أعرف قوة [illegible] تحمل ذلك العهد [illegible] أحلم [illegible] في طفلة [illegible] في [illegible] ذلك [illegible] الخالدة [illegible] العربية الخالدة وفي كل [illegible] إلى [illegible] وفي [illegible] وتفطنك ونومك واجتماعك وانفرادك [illegible] إلى [illegible] شيء

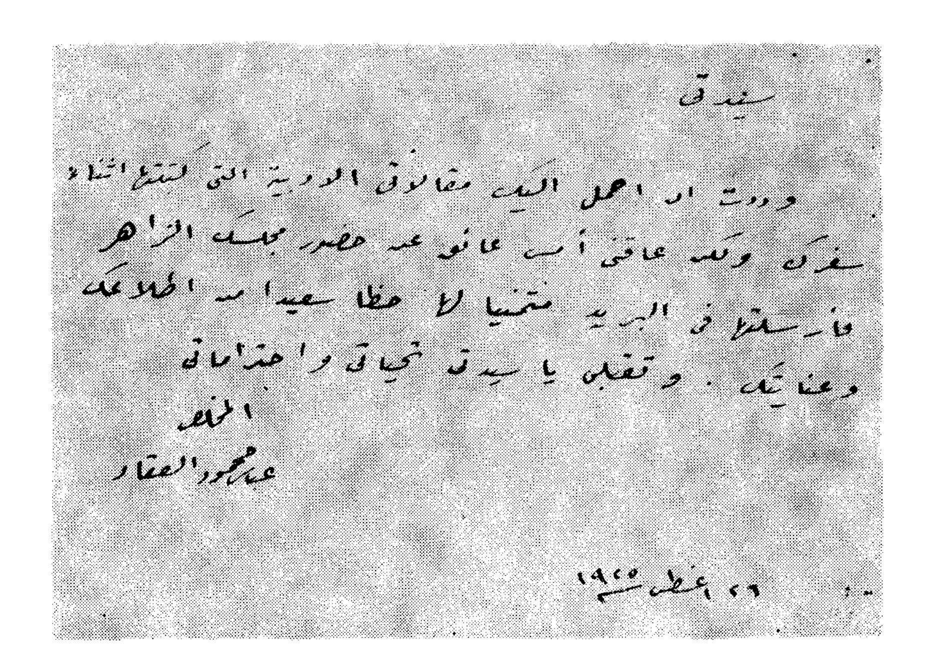
[illegible] أقول [illegible] أن لا [illegible] القاهرة وأنت [illegible] وهل أحدثك بما أشعر به وأنا [illegible] إليك [illegible] وذكرياتها الخالدة؟ أي [illegible] [illegible] بعيدة [illegible] القديم [illegible] – وهذا ما [illegible] – [illegible] الشوق [illegible] صوتك [illegible] قط قبل الآن ، ولا [illegible] هذه [illegible] إليك على البعد [illegible] المسافات [illegible] والآفاق وظلام [illegible]

الليل وبياض النهار، فلا هنالك بعيد مني لأنه أقرب قريب إلي حيث هو حاضر أبداً أراه في
أرى شيئاً سواه، ولا تتوارين دون الفرجة تحتويك في ذكريات الزمان لأنني أراك
دائماً في العالم الذي لا زمان فيه ولا أبعاد ولا حدود ولا قديم ولا حديث. أراك
في عالم الوجود الخالد الذي تغني له يد الله جل جلاله ساعة ننظر في لحظة من
لحظات الحياة فإذا الروح الإلهي نفسها تطل علينا من أهداب عينيك أنا [illegible]...
وتسبح على وجه الدرج والسماء. فإذا جميع ما فيها باد لنا في حلة الأبدية كما رآه الله
أول مرة، فلا تاريخ لما بعدها غير تاريخ تلك اللحظة التي [illegible] جميع آباد
الزمان، ومن ذلك العالم حيث أقدم التواريخ المجهولة الأحدث الأمس وليست
ذكريات روما البعيدة إلا مشاهد الحاضر الماثل أمام الأبصار.
وقد كنت فيه أول مرة ذكرتك فيها بين معابد البلاد النائية وأطلال الأزمنة
القديمة. فقد ذكرتك في الأهرام وذكرتك عند عرش أبي الهول وعند معبد [illegible]. وما كان
أعجب الخواطر التي ألمت بي هناك بين الهياكل التي أحببتها وأحببت أن أصحبك فيها!
كانت صورتك تكسوها حياة ونضرة وعطف وجمال وأمل وابتسام، وكانت
مناظرها الرهيبة تكسوك من هيبة وجلال وسكون وابتهال، وكان كلاهما يأخذ من
صاحبه خير ما عنده ويعطيه خير ما عنده. فيزداد الجمال بالرهبة وتزداد الرهبة
بالجمال ... وأعبد [illegible] في تلك الهياكل وأحب أبا الهول... ولكنني لن أندم
[illegible]... وأقولها اليوم وأنا مشتاق لفقدتها الرهيبة
عليها. نعم لن أندم عليها أبداً!
والآن أنت في روما المدائن بين كهف الفن وآثار التاريخ وصوامع
العبادة العامرة ومبادئها الرياضة الدائرة. فكل ما أرجوه — كل ما أرجوه
أن ترجئي القفزة إلى ما بعد العودة... وأن تريني بعينيك ومن خلال نفسك —

وأنت [illegible] شيئاً مما تترجم به تلك العينان الجميلتان وتتمازج به تلك
النفس [illegible]. فإذا سمحت لي أن أنظر بمالك [illegible] وأنت هنالك سارحة
الطرف لتأمل آية من آيات العبقرية أو قد أويت في زاوية من زوايا الكلسيوم أو وسط
حديقة من حدائق اللغة [illegible] بين منظر من مناظر الطبيعة أو مرة تحت ضوء
القمر الحالم ... إذا سمحت لعيني أن تقف إلى جانبك هنيهة في بقعة من تلك
البقاع فذلك أسعد لي ألف مرة من أن أراها بعيني وألمسها بيدي، وتعلق عندي
به [illegible] أجنحة الملائكة إلى خيال روما القدسي من طريق عينيك
وإذا شهدت روما بعد ذلك فلن تكون شأن أقدس ما فيها من النفائس
والآثار أنه المعبد الذي بناه فلان وعبدت فيه الآلهة والأوثان وعاش كذا وكذا
من الأزمان. ولكن سيكون شأنه الأوحد الأسمى أنه الأثر الذي وقفت لديه
"مي" وتأملته قبل أن أراه بعيني.
فهل ستذكرينني؟ إني آمل وأتوسل، بل إني واثق أنك ستذكرينني!
واثق كل الثقة وسعيد كل السعادة بهذه الثقة الغالية. فلا تنسي يا آنسة...
واعذري ولا تشتدي علي! وتقبلي من أعز وأصفى ما ترسل نفس إلى نفس من
تحيات الشوق والرجاء والعطف والشكر والاحترام.
المخلص
[illegible]

أول يوليو سنة ١٩٢٥

عادت الآنسة « مي » عقب ذلك من رحلتها : ونشرت الصحف خبر عودتها وآثر العقـاد التخلف عن زيارة الصالون وأرسل إليها بالبريد هذه الرسالة :



سيدتي

وددت أن أحمل إليك مقالاتي الأدبية التي كتبتها أثناء غيابك ولكن عاقني أمس عائق عن حضور مجلسك الزاهر فأرسلتها في البريد متمنيا لها حظا سعيدا من اطلاعك وعنايتك . وتقبلي يا سيدتي تحياتي واحتراماتي

المخلص

عباس محمود العقاد

٢٦ أغسطس ١٩٢٥

وقد عثرت بين أوراق الـكاتب الراحل على مظروف بداخله أربـع قصائد شعرية بخط العقاد كلها في « مي » التي أحبها وكلف بها رأينا أن نثبتها في هذا الكتاب كوثيقة بخط صاحبها تعين الدارسين على نحو من الانحاء لا سيا وقد ذكر العقاد في إحداها أن محبوبته كانت تسكن بشارع المغربي .

درس مفيد

علمتني "الصبرَ"(1) الجميل ولذَّ لي ... صبري وطالت في هواكَ أناتي
لا أشتكي أبداً، وها أنا قائل: ... "ما فات فات وكل آتٍ آت"
إن كان أقسى من أحب وأرتجي ... يقسو عليَّ ولا يجيب شكاتي
فإلامَ حتى أشتكي من محنة ... يجري بها قدري وظلمُ عداتي؟!

(1) وقد علمتني تلميذتي العاصية كما علمتها وحفظتُ الدرس فلا أحسبني لذلك في حاجة إلى تكريره!

أبصر النور من مطالع «مي» … بفؤادي على الهدى قبل عيني

وإخال الجدار يحجب رفقاً … بين ذاك الوجه الصبوح وبيني

كلما عزني اللقاء تأدّيـ … ـت الى الدار ملهمَ الناظرين

وتحسست أرقب اللمح منها … ويحَ ذاك الجاسوس من كل «عين»!

أتوارى «بالغربي»، كأني … طالب عنده شفاعة «لأيني»..!

ليته قد درى الى أي وجهٍ … فوقه، قمتُ ضارعاً باليدين

راضياً أن أرى ضياءً حواها … ووعى في مطاردها كل زين

عشقتي يا «مي» هاجراً أو عطوفاً … أنت موموقة على الحالتين

عذبيني(1) أعرفْ مكانك عندي … والذُّ العذابَ لو فيه حَيني

وأصون فيك كبرياء عزيز … لم يكن قبل أن يراك بهيِّن

«أملي أننا اذا ما التقينا … أقتضي منك يا أُخيّةُ دَيني

(1) هذا رجاء أجيب قبل أن يطلب فلا أحسبك في حاجة الى تكريره!

هورية الوحي التي رقصت ... طرباً بموسم بنائط الفجر
وحنت على شعري كما أحنت ... بين الجريح ملائكة البر
تأسوه من كلم، وتنعشه ... من عثرة، وتقيه من بُهر
شكراً على شكر أردده ... من أجله ما غاب في صدري
وتحيةً في الفجر أرسلها ... كتحية الأمواج للبدر

* * *

هذي شقيقتك التي نظمت ... ما تعجبين اليوم من شعري
هي من بنات الحور(1) ما بعثت ... شأويك في حسن ولا فكر
أوحت إليّ بلحظها وهفت ... من صمتها في حيث لا أدري
فإذا غنيت بها فلا عجب ... سر القرابة فيكما يسري!

* * *

أعروس أحلامي وملهمتي ... معنى الحياة وفتنة السحر
أدعوك دعوة عابد وجب ... يزجي الصلاة، لربه، بالطهر
كوني، إذا ما شئت، شعري ... حوريتي في مقبل العمر

(1) My muse!

سلمت روما التى أنت بها ... وسرى يمناً بها سارى الفضاء

وكساها الله نساج الربى ... كل يوم زينة شتى النماء

وجلاها الله من يجلو لنا ... بشعاع منك آفاق الرجاء

والذى أولاك من أنعمه ... بهجة النوابغ : حسن وذكاء

ليت شعرى كيف تلقين بها ... سيرة العصر وذكرى القدماء ؟

أترين اليوم فيها عجبا ... أم قديما كل آن فى رداء ؟

وبنو الرومان هل هم بدعة ... أو هم كالناس فى الدنيا سواء ؟

أحسب الأيام بهم واحداً ، ... ما اختلاف الوجه فيه والرداء ؟!

صديق النفس من الباطن لو ... يخفى الظاهر فى الدور القواء

من يرى القلب وما فى طيه ... لو يبالى ما اختلاف السيماء

من يرى الظن خيالا فله ... بالرؤى – عن نظرة العين غناء

بين أيد النفس من عادتها ... تخلق الأشباح فى كل فضاء

وتصب الظل منها والصدى ، ... وأصوغ الظل فيها والغناء

* * *

أنت فى روما وفى مصر أنا ... بعدت شقتنا لولا النجاء .

بيننا جيرة نور سابغ ... فوق رأسينا ، ونور فى الخفاء

الرأي الجديد
في تحرير المرأة

بدت لي الآراء في المرأة يا … من هي المرأة في خير شكل
واتركي لي يا حياتي أملاً … ماله في هذه الدنيا بدل
أنت لي شمس إذا ما انتقلت … في علاها فهي شمس لم تزل
كل آرائك محمود فما … بال رأي فيه للقلب جدل
لك بالقيد الذي حطمته … كل شكري فهو لي قيد أمل

عباس

سيدتي الآنسة العزيزة

هنئت بالعام الجديد وعيده … يا خير من زان الجديد وزينا
لك في سمائك كل يوم رحلة … تطوينها علوا وتبتدئينا
وهي النفوس مؤرخات زمانها … لا النجم يذرع في الفضاء سفينا
إن الذين يؤرخون حياتهم … بمطالع الأفلاك لا يحيونا
فاهني بمطلع كل عام مقبل … في طي نفسك هلالاً ميمونا
وخذي التحية من أخ لك لم يكن … ليجف عندك بالتحية حينا
يرجو لقلبك كل موقع نبضة … عيداً جديداً بالسرور قمينا

عباس

وخلال تلك الأيام فوجئت (مي) بمرض والدتها الذي لم يمهلها طويلاً فتنتقل إلى الرفيق الأعلى لتلحق بوالدها ومن هذا المنطلق تعيش حياتها بين مد وجزر ، وآمال وأحلام وأفراح وأشجان وابتسامات ودموع .. حياة يتوهم الغرباء إنها سارة وإن كانت في حقيقتها محزنة ، وقد يظن البعض الآخر إنها حياة قد أحسنت لصاحبتها وفات هؤلاء أنها كانت لا تخلو من مرارة وألم . كان ذلك هو الكأس الذي تعاطته (مي) وتذوقت فيه حلو الحياة ومرها وسبرت منه الحياة الهناء والآلام . فقد حدث أن توفي والدها[1] في سنة ١٩٢٩ وكان ذلك بداية تذوق مرارة الحزن . وأطمعت تلك المأساة البعض فيها . فعانت شقاء هذا الطمع ، وصاروا يلاحقونها في كل حين حتى ضاقت بهم وضاقت بالدنيا وسئمت الحياة وهي في ضيقها الشديد وسأمها الطويل ، تحاول أن تعبر ولا تشكو وتخفي ولا تعلن . ويجيئها بعضهم يطالبها بثلاثمائة جنيه ، لأن أرضها مرهونة . وقدموا لها وثيقة مزورة بالرهن وضيقوا عليها ، حتى ضاقت بحالها وازدادت آلامها وهي في شكواها وضيقها لا تصرح لأحد بما يثير في نفسها هـذه الآلام اللهم إلا لفئة قليلة جداً من أولئك المقربين إلى نفسها وقلبها . وكان العقاد بطبيعة الحال أحد

---

(١) إلياس زيادة صاحب المحروسة من أصل لبناني ومن أسرة عرف أفراد منها بالعلم ومنهم الدبلوماسي الأديب الدكتور بيير زيادة ، والجـــد المفضال المطران زيادة رئيس أساقفة بيروت .

هؤلاء . فقد حادثته في أمر هذا الدين المزعوم الذي وجدت نفسها أمامه وسألت الرأي فيما تتبعه من طرق للطعن أمام المحكمة . وفي تلك الأيام كلف العقاد أحد أصدقائه المحامين وهو الأستاذ حافظ جلال أن يتولى قضيتها فكلفه بالمرور عليها ومقابلتها وكتب له رسالة باليد ليقوم بتوصيلها إليها جاء فيها :

صديقتي الأستاذة الفضلى

صديقي وجاري الأستاذ حافظ جلال المحامي
قادم إلى حضرتك لسؤال عن بعض البيانات
القانونية التي لا بد منها قبل تبليغ النيابة
حسب مشيئتك . فأرجو أن تتفقي معه في وقت
ولولا أنني أعالج تعباً جسدياً يحرمني البقاء في
المنزل ساعات أخرى لحضرت معه . ولكني سأتشرف
بزيارتك اليوم وأرجو أن يتم كل شيء على ما
تريدين . وتفضلي بقبول التحية والاحترام

المخلص
عباس محمود العقاد

وترجح الأستاذة وداد سكاكيني أن سبب تلك المحنة التي اجتاحت الآنسة « مي » في أخريات أيامها هي نشأتها الدينية فقالت :

« وكانت من أشد العناصر قسوة عليها في سبب محنتها نشأتها الدينية التي وضعت نفسها بين جدران ضعيفة في حبس النساء المتبتلات . فلو لم تنشأ في ظلال الرهبانية وتعاليم الدير لما قست على نفسها بالحساب العسير[1] » .

وتتضح شدة المحنة من خلال سطور رسالة كتبتها لقريبها الدكتور جوزيف الذي كان يعيش ببيروت تقول له فيها :

« عزيزي جوزيف . منذ مدة لم أعد أكتب وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمد حركة يدي ووثبة الفكر لدي .

إني أتعذب شديد العذاب يا جوزيف ، ولا أدري السبب . فأنا أكثر من مريضة . . إنني لم أتألم في حياتي كما أتألم اليوم .. وددت لو علمت السبب على الأقل ، ولكني لم أسأل أحداً إلا وكان جوابه : لا شيء ، إنه وهم شعوري تمكن مني .

لا ، لا يا جوزيف ، إن هناك أمراً يمزق أحشائي ويميتني في

---

(١) « مي زيادة في حياتها وآثارها » وداد سكاكيني ، طبعة دار المعارف ص ١٧٥ .

كل يوم وفي كل دقيقة ، . . لقد تراكمت علي المصائب في السنوات الأخيرة وانقضت على وحدتي الرهيبة التي هي معنوية أكثر منها جسدية فجعلتني أتساءل كيف يمكن عقلي أن يقاوم عذاباً كهذا .

وكان عزائي الأوحد في محنتي هذه مكتبتي ووحدتي الشعرية ، فكنت أعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعلي أنسى فراغ سكني ، أنسى غصة نفسي ، بل أنسى كل ذاتي .. ، إنه ليدهشني حقاً كيف أني استطعت أن أكتب هذه الرقيمة ، ولعل الفضل في هذا يعود جزئياً إلى « اللفائف » التي أدخنها ليل نهار – أنا التي لا عهد لي بذلك – أدخنها لتضعف قلبي ، هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم . واسلم لابنة عمك « ماري » »[1] .

وقد عبر العقاد عن تلك المحنة في قصيدة رثائه لها . تلك القصيدة الرائعة التي لا تصدر من شاعر لزميلة راحلة . ولكنها من شاعر عاشق محب لمحبوبة راحلة .

يقول العقاد :

أتراها بعـــد فقـد الأبوين
سلمت في الدهر من شجو وبين
وأسى يظلمها ظـلم الحسين

(١) المرجع السابق ص ١٧٩ .

ينطوي في الصمت عن سمع وعين
ويذيب القلب كالشمع المذاب[1]

وخلال تلك الأيام بدأت تلوح في الأفق . . أفق العقاد ، امرأة أخرى هي محبوبته التي سجل علاقته بها في قصته الخالدة « سارة » . وقد كانت سارة لا تعلم من شأن « مي » إلا أن العقاد يعرفها ويكبرها ويزورها حيناً بعد حين . وكانت تتبرم بتلك الزيارات ثم كانت تتوخى – كعادة المرأة – أن تغويه وتشغله في اليوم الذي يختاره لزيارة « مي » .. وإن كانت « مي » لم تكن تعتقد الرهبانية في العقاد ، ولم تكن تزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء ، ولا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة وشبح غرام واحد ، فإن اسم النساء في هذه الحالة لا يدل على معنى ، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعاية واستئثار .

فلما شعرت « مي » بأن النساء تحولن عنده إلى امرأة لها شأن غير شئون أخواتها من بنات حواء زارته على حين غرة في مكتبه بصحيفة البلاغ ، وهي الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها ، ولم يكن لها مسوغ من طول الغيبة ولا امتناع حديث التلفون . ولم يشك

(١) ديوان أعاصير مغرب للعقاد ص ١١٢ .

العقاد لحظة في الغرض من تلك الزيارة ولا في الباعث إليها ، وتوقع منها عتباً عنيفاً على أسلوبها في التعبير الصامت المبين ، ولكنه علم سلفاً أنها غير منصفة في عتبها ، لأنه لم يختلس منها شيئاً هو من حقها عليه . فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت مترقباً فقالت له بعد فترة وصوتها يتهدج :

ـ لست زائرة ولا سائلة !

قال : إذن ...

ولم يتمها لأنهـــا نظرت إليه كمن يستحلفه ألا يتكلم . وانحدرت من عينيها دمعتان . ولم يتمالك العقاد نفسه وقتذاك من أن يتناول يدها ويرفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها ، فمانعته ولم تكف عن النظر إليه .. ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة .. وهي تتمتم هامسة . . دع يدي . ودعني ! ثم انصرفت بعد أن سكن جاشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع .

وقد سجل العقـــاد هذا المشهد في قصيدة شعرية ضمنها ديوانه « أشجان الليل » تحت عنوان « تبكين » قال فيها :

تبكين ! والهف الفؤاد يذيبه   ذاك الحنين يذوب في خديك
أيراك باكية وأنت ضيـــاؤه   ونعـيم عيشي كله بيديك ؟
وعزيزة تلك الدموع فليتها   يقنو قطيراتها نظيم سلَيك

لملأت ثم يدي بأكرم جوهر من عطف قلبك فاض من عينيك

* * *

لو أستطيع جمعت كل ذخيرة في الدهر من ضحك يروق لديك
ونغمت أطرب شدوه وجعلته بين الكؤيس العذب من شفتيك
فيضج مزدهياً بفيك . وتنتشي فرحاً قلوب النـاظرين إليك
ما أحسن الحسن المهذب ضاحكاً وأحب جلبـاب السرور عليك

* * *

والله ما ضن السرور وما ونى يشتاق هزته عــلى عطفيك
لو شئت كل مســرة مبذولة لجثت مسرات على قدميك [1]

ويقول لها في قصيدة أخرى :

صافحيني ! ألا مصافحة اليو م ولا قبــلة على الكف عجلى
أغضاباً تحمينهــا أم دلالاً أم حذار الرقيب تنأين خجلى ؟
بعــد لأي مدت بيسرى يديها كرماً ، أو لعـــله كان بخلا
حذرت من حيالها واطمأنت من حيالي ، فـكان صداً ووصلاً
غير أنـ اليسرى أبر وأندى وأراها بقبــلة القلب أولى
هي أدنى إليه من أختها اليمـــنى ، فأنعم بها وأهلاً وسهلاً [2]

---

(١) ديوان « أشجان الليل » للعقاد ط أولى ص ٢٩٥ .
(٢) ديوان « أشجان الليل » للعقاد طبعة أولى ص ٣٠٣ .

ويعقب العقاد في قصة « سارة » على آخر زيارات الآنسة (مي) له بقوله :

« لو جاءت هذه الزيارة وهمام في بداية العلاقة بسارة لما كان بعيداً أن تقضي على تلك العلاقة ، وكان ترد سارة اسماً مغموراً في عامة عنوان النساء . بيد أنها جاءت وقد أوغلت العلاقة بينهما إيغالها الذي لا تراجع فيه ، وصمدت على طريقها تعدو مع الأيام عـــدواً لا تنظر فيه إلى الوراء . وفسح لها الطريق أن هماماً لم يكن يوغل فيها مثقلاً بتبكيت ضميره لأنه لم يخن هند ولم يقصر في حقها عليه ، ولا وهم أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه »[1] .

أخذ ذلك الحب . . حب العقاد « لمي » يتوارى مع الزمن حتى وقف العقاد في قرابة الستين من عمره بدار الاتحاد النسائي بالقاهرة يرثي تلك المحبوبة في حفل تأبينها فقال :

تلكمو الطلعة ما زلت أراها غضة تنشر ألوان حلاها
بين آراء أضاءت في سناها وفروع تتهادى في دجاهـــا
ثم شاب الفرع والأصل وغاب

عاش العقاد بعد حبه « لمي » يذكرها ويذكر معها تلك الفترة

---

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية ص ١٧٠ – ١٧١ .

من مطالع شبابه . . وتنسجم أمام ناظريه آخرتها وقضية الاضطهاد التي لازمتها حتى فارقت دنيــا الأحياء في سنة ١٩٤١ وغدت ذكرى على كل شفاه . . عاش العقاد يذكر لمعارفه وتلاميذه كيف تمكن بلاء الاضطهاد من تلك النفس الزكية . . وكيف وقع معها هو نفسه في خطأ الإقنــاع الذي أحاله في نظرها إلى إنسان غير مخلص بل وغالت في شكها نحوه فاعتبرته أحد المؤتمرين عليها .

يقول العقاد : « زرت الآنسة « مي » ورأيتها ترتجف وهي تفتح الباب ، وتشير إلى المسكن الذي أمامها وتضع أصبعها على فمها تحذرني من الظلام ، قالت : « ألا ترى هذه الحجرات وما فيها من النـــور ؟ إنها خالية وخاوية فلماذا ينيرونها في هذه الساعة ؟ فاتجهت إلى تلك الحجرات وسألت عاملاً وجدته عند بابها ، فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم في اليوم التالي وهو أول الشهر وأول تاريـخ الإيجار ، فلمـــا أنبأتها بمـا علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أنني أخفي عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين [1] » .

---

(١) مقدمة العقاد لكتاب « الساعات الأخيرة » للمرحوم طاهر الطناحي كتاب الهلال العدد ١٣٠ يناير ١٩٦٢ .

ســاره ... أو ... أليس

ليس غريباً أن يكون الموت للمحبوبة الأولى في حيـــاة العقاد بداية الحياة مع أخرى من بنات جنسها أو بداية لعلاقة جديدة يعيشها قلبه الكبير وسط زفرات الحيـــاة ، والموت سر من أسرار الكون كذلك الحب لو جاز لنا هذا التعبير . فلو حاولنـــا أن نعرف الموت فغاية المستطاع أن نعرفه بأعراضه إن كانت له أعراض ، أو بأسبابه إن كانت له أسباب . كذلك الحب . فهوشيء لم يدرك أحد سره وحقيقة دوافعه التي تجرد العاشق من شعوره بشخصيته ، وتهون عليه في سبيل هواه كل شيء حتى الموت ، بل قد يستعذب الموت ويطلبه ، أملاً في النجاة أو رغبة في أن يجمع الله بينه وبين من يحب في عالم الأرواح ، إذا كان قد كتب عليه ألا يهنأ بهذه السعادة في عالم الأجسام . . !

« وإذا أصاب العاشق اليـــأس فقد يقتل نفسه ، أو يموت غماً . وقد يرى محبوبته فجأة أو بعد غياب طويل فيتأثر ويموت فرحاً ،

أو يشهق شهقة تصعد فيها روحه . أو يبلغه أنه قد مات ، فيصعق بنعيه ويموت حزناً . أو يهجره المحبوب ، فيصيبه من الآلام النفسية ما يضعف جسمه ، ويميته بأوهى الأمراض . بل قد يمتزج العاشقان امتزاجاً روحياً ، فيصبحان شيئاً واحداً إذا شطر النصف مات النصف الآخر ، كما قال العباس بن الأحنف :

خلط الله بروحي روحها فهما في جسدي شيء أحد
بهما يحيا إذا ما اصطحبا فإذا ما افترقا مات الجسد[1] »

ومما يروى أن فتاة عربية هويت شاباً وهامت به هياماً شديداً حتى لم تستطع فراقه فكلفت مصوراً رسم صورته ففعل ، فجعلت تجلس إلى الصورة كلما غاب عنها . وتحادثها وتأنس بها . ثم مات الشاب ففجعت بموته ، ورجعت إلى الصورة فما زالت تقبلها وتبكي إلى أن امست فباتت إلى جانبها . فلما كان الصباح دخلوا عليها فوجدوها ميتة ، ويدها ممدودة على الجدار ، وقد كتب عليه :

يا موت دونك روحي بعد سيدها خذها إليك فقد اودت بما فيها
اسلمت روحي للرحمن مسلمة ومت موت حبيب كان يعصيها
لعلها في جنان الخلد يجمعها يوم الحساب ويوم البعث باريها[2]

---

(١) الساعات الأخيرة للمرحوم طاهر الطناحي كتاب الهلال ص ٣١ .
(٢) الساعات الأخيرة للمرحوم طاهر الطناحي كتاب الهلال ص ٣١ .

بعد هذه السطور يمكننا ان نتحدث عن حب العقاد الثاني او عن حواء الثانية في حياته وهي تلك المرأة الجذابة التي يشوق كثير من الفتيات ان يقلدنها وان يذهبن مذهبها في الحيـاة لا سيما إذا كن يقاربنها في الملامح الأنثوية التي كانت تتمتع بها أيام حبها للعقاد. وقد خـلد العقاد نفسه تلك العلاقة بقلمه حينما شرع في كتابتها على صفحات مجلة « الاثنين والدنيا » التي كانت تصدرها دار الهلال قبل سنوات ثم اصدرها في رواية كاملة تحمل اسم « سارة » فـكانت نمطاً من الرواية التحليلية او التحليل الروائي.

والمتصفح لتلك القصة يجد انها لقطة من معركة دائرة لا بداية لها ولا نهاية وفي ذلك يقول الأستاذ عبد الفتاح الديدي: « حـين بدأت كلمات الفصل الأول كانت القصة توشك ان تبلغ النهاية، وحين انتهت عباراتها الأخيرة برزت معالم بدايتها كأنها لم تكد تبرز إلى دار الوجود[1] ».

والواقع فعلاً ان القارىء لهذه القصة يجد ان صاحبها قـد اتبع طريقة خاصة في سرد احداثها ووقائعها بطريقة تلائمه هو إذ يرى أنها الطريقة الوحيدة التي تصلح لأدائها. فنراه يبدأها بالشك ثم بعلاج هـذا الشك ثم بالرقابة لتلك المحبوبة التي فرضها عليها ثم

---

(١) عبقرية العقاد لعبد الفتاح الديدي طبعة الدار القومية للطباعة ص١٢٩.

القطيعة وهكذا حتى ينتهي منها في سرد محكم يخرج به في النهاية بعد ان يأتي على تلك التجربة الفذة الذاتية في حيـــاته فتكون سبباً يكشف لنا عن جانب من جوانب تلك العبقرية .

والذي نعلمه من ترتيب أحداثها كالمالوف في كتابة القصة والذي كنا نتوقعه منه ان يبدأ بالفصل الحادي عشر الذي كان عنوانه « كيف عرفها » .

يقول العقـــاد في بداية ذلك الفصل من قصة سارة : « لم يقصد همام أن يلتقي بسارة ، ولم تقصد سارة ان تلتقي بهمام وإنما جاء اللقاء كما تجيء معظم الحوادث الكبرى في معظم التواريـخ والسير ، من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب ، مصادفة لا يسبقها عمد ، وعرضاً لا يمهد له بتفكير [1] » .

وخلاصة تلك الأحداث كما أعرفها ويعرفها القليل جداً من المقربين للـكاتب الكبير أنه خرج ذات صحـــوة من صحوات الخريف يتمشى في مصر الجديدة حيث يسكن هنـــاك . وخلال نزهته في ذلك الحي الجميل وجد نفسه على مقربة من مسكن صديقه الأستاذ احمد صبري السربوني الذي اســـماه العقاد في قصته باسم « الأستاذ زاهر » . وهو كما وصفه في القصة انه رجل ظريف

---

(١) « سارة » للعقاد صفحة ١٢٧ .

طيب النحيزة من أولئك الذين يرضون فيسلون ويطربون ، ويسخطون فيكونون ادنى إلى التسلية والطرب ، لطرافة ما يرتجله في هذه الحالة من مفارقات اللذع والتنديد .

وكان ذلك الصديق يسكن في إحـدى البنسيونات بمصر الجديدة يقع في شارع الأهرام ، وكانت تديره خيـاطة إيطالية تدعى « خريكليا » تعيش بالأراضي المصرية منذ زمن بعيد اسماها العقـاد في القصة « ماريانا » وكان ذلـك البنسيون يعرف « بفيلا منتروز Villa Montrose » .

يدخل العقاد ذلك البنسيون ليسال عن صاحبه وصديقه ليقضي معه فترة يقفزان فيها بين معارض الحديث التي لا صلة بينها ، ويضحكان ضحكاً كثيراً . فإن لم تكن فيه فـكاهة عالية ففيه ولا شك تمرين نافع للرئتين . « فتلقاه تلك السيدة في فناء البنسيون وهي تقـدم الطعام لديكة رومية كانت تقوم على تربيتها إزجاء لوقت الفراغ او جرياً على عادات السيدات المسنات اللائي حرمن الذرية من البنين او البنات . وتصادف انها كانت تطعم الديكة يومذاك بعضاً من المكرونة البـائتة . وكانت تجلس عندها فتـاة مليحة مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه .

وصف العقاد تلك الفتاة في قصة « سارة » بقوله :

« إنها أجمـــل من رأى في أيام فتنته وشغفه . . بل وصفها بأنها حزمة من أعصاب تسمى امرأة ، استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة : لعلها أنثى ونصف أنثى . ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرس الجمـوح يتبعها النشاط والمزاح كما يتبعها الإعيـــاء والبكاء . لها فراسة نفاذة في كل ما بين الجنسين من علاقة ، تفطن لما في نفس المرأة لأنها امرأة ، وتفطن لما في نفس الرجل لأنها امرأة » .

ويضيف قائـلاً : « لو عمدت إلى ترتيب ألف امراة هي منهن لنظمتهن واحدة بعـد واحدة في مراتب الجمال المألوف ، ونحيت سارة عن الصف وحدها . . وإن كنت لا تنكر – ولا تبالي أن تنكر إنها تأتي بعد مئات .

لونها كلون الشهد المصفى ، يأخذ من محـاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة .

عيناها نجلاوان ، وطفاوان ، تخفيان النزعات : فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة .

وفمها فم الطفل الرضيـع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه

وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة في لمحة الناظر . وبين وجهها وجسمها الغضير جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقاً من كليهما . فليس هو جيداً كأي جيد ولكنه الجيد الذي يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام [1] » .

يسأل العقاد « مريانا » عن صديقه وهو ينظر إلى تلك الفتاة المستديرة الوجه . . الدقيقة القسمات القصيرة الشعر على نمط آخر الصيحات في قص الشعر النسائي محدقاً في الخصلة اللطيفة المتهدلة على جبينها . وتجيبه « ماريانا » بعد أن ترد عليه التحية قائلة : إن صديقه قد خرج منذ هنيهة وإنه عائد بعد قليل . فوجد العقاد الفرصه سانحة ليطيل الحديث مع « ماريانا » مخاطبها قائلاً :

– أرى أن الديكة اليوم إيطالية وليست رومية !

فابتسمت « ماريانا » وتركت الفتاة تجيب ذلك السائل الفيلسوف فبدأت تقول له :

– إذا كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الأجناس ، مصرية إذا أكلت الفول المدمس ، وإنجليزية إذا أكلت البطاطس ، وهندية إن صبرت على الصيام الطويل .

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية صفحة ١٠٢ .

فرد العقاد : أراك تعرفين كل شيء عن ديكة البيت وتذبذبها في الوطنية يا آنستي . وعلى الفور أحس العقاد أن الكلمة الأخيرة لم توافق هواها لأنه سمعها تجيب بشيء من الهمس مع الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها : ولماذا يدعوني آنسة . . لا بد أنه يستصغرني مع إني ربة بيت وأم . ولم يفت على العقاد أن تلك الحسناء غضبت لأنه دعاها يا آنسة ، لا سيما وأنه رأى بخبرته في عالم حواء بريق الرضى يومض في عينيها من تلك التسمية . . وإنما أدرك أن غضبها كان سببه أنه عز عليها أن يجعلها شيئاً مهملاً يجوز أن يراه مرة أو مرات ثم ينساه . وأحب أن يغيظها قليلاً فعاد يقول لها :

ـ ولكن السيدات يا آنسة يلبسن في أصابعهن علامة الزواج فأين هذه العلامة ؟ فقالت له بعد أن نظرت إليه طويلاً وهي تهز رأسها !

ـ لذلك شرح يطول .

فقال لها : عسى أن أسمعه في وقت قريب .

وتصادف أن رأى شيخاً هرماً يدخل الفناء فسأل « مريانا » عنه فقالت له : إنه ضيف ثري يملك ثروة طائلة تبلغ الألوف وليس له قريب ولا قريبة تلوذ به في شيخوخته . فقال لها العقاد :

وما حاجته إلى البحث عن وارث ؟ إن الورثة يبحثون عنه ولا يقصرون إذا لزم ذلك ، واقترح عليها أن تنصحه بكتابة إعلان في الصحف اليومية يشير فيه إلى ما يملك ويعلن أنه محتاج إلى كذا من الإخوان وأولاد الأعمـــام وأولاد الأخوال وحينذاك سيضيق البيت بالطالبين والطالبات . فضحكت الفتاة فاضطر العقاد أن يحول الحديث إليها قائلاً :

ــ وأنت يا سيدة . نعم أنت يا سيدة في هـذه المرة : لأي قرابة ترشحين نفسك إذا أعلن الرجل إعلانه ؟

فهزت الفتاة رأسها وقالت : أوفرها نصيباً في الميراث . واستمر العقـاد يداعب تلك الفتاة بأسلوب الرجل الخبير بمعاملة النساء حتى اضطرت تلك الفتاة أن تقول له : ما هذه التحيات وما هذا الغزل . إنني أخشى عن قريب أن تقول لي : عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك ، إلى آخر هـذا الموال المحفوظ . فيسرع العقاد بالرد عليها قائلاً :

ــ ولماذا عما قريب ! الآن . فقالت : أنت عجول وجريء في آن واحد . قال لها : إن وعدتني أن أجني للصبر ثمرة فأنا أصبر من أيوب . وبحركة سريعة جداً وفي غفلة من « ماريانا » قبلها العقاد ثم جلس مأخوذاً بما حدث لأنه كان يتوقع أن تشتمه تلك

الفتاة أو تتركه وتترك المكان غاضبة ولكنها قالت له في صوت خافت : لقد آذاني شاربك الطويل . وتم التعارف ورفرف كيوبيد بجناحيه على المكان . لقد عرفته هي نظراً لشهرته الأدبية والصحفية ونظراً لأنها كانت تنحدر من أسرة تعمل في الصحافة وهي أسرة داغر التي عرفت الصحافة المصرية منهم المرحوم « أسعد داغر » الذي توفي عام ١٩٥٨ .

وفجأة تخرج « أليس » أو سارة كما سماها في القصة ، وبعد لحظات خرج العقاد بعدها منقبضاً متحاملاً يلوم نفسه على أنه تركها تخرج ولا يلوم نفسه على تقبيلها تلك القبلة التي كانت مفاجأة لها . . وخلال سيره في الطريق عادت القبلة إلى شفتيه كأنها طيف يرف على مهاده الأول حتى لقد أوشك أن يضم شفتيه ليلامس ذلك الثغر الذي لاح له أنه ينضغط من لينه وطراوته إلى غير نهاية ، وسرت لذعته الباردة كلذعة النعناع الذي هدأت سورته وبقيت ذكراه ، فازداد غماً على غم ولعن ذلك الشيطان الكامن في أعماق كل نفس يثير لواعجها وينكأ جراحها ، في حينما احتاجت إلى التهوين والنسيان .

وذهب إلى بيته وعلم من خادمه أن سيدة سألت عليه في التليفون فلم يعره كبير التفات ثم عاد إليه الخادم بعد فترة يخبره أن تلك السيدة تسأل عنه للمرة الثانية . فنهض إلى التليفون وآخر

ما في ذهنه أن المتكلمة هي الفتاة التي قابلها عند « ماريانا » فقال بغير اكتراث : ألو .. مين .

فقالت المتحدثة في صوت يذوب أنوثة : ألا تعرفني ؟

قال : عرفتك الآن .. أنت أليس بدون شك .

قالها بلا ذلك اللقب الذي يضايقها وكأنهم صديقان قديمان .

قالت : هل كنت تنتظر هذه المحادثة ؟

قال : لا أزعم أنني كنت أنتظرها ولكني أحسب أنني كنت أتمناها !

قالت : إذن هل تحب أن نلتقي الليلة في السينما بمصر الجديدة .

قال : بل أفضل أن نلتقي على انفراد . فذلك أسلم وأمتع .

قالت : أنا أدعوك لرؤية هذا الفيلم لأن قصته تشبه قصة حياتي تماماً .

قال : أفضل أن أسمعها من لسانك خير من أن أشهدها مع مئات .

قالت : فأين إذن .

قال : ما رأيك في حديقة الأهرام فهو مكان قلما يغشاه أحد في هذه الآونة . والتقيا على ناصية الشارع الذي يسكن فيه واستقلا سيارة إلى الحديقة . وخلال الطريق سألته إن كان قد فهم لماذا

خرجت مسرعة يوم التقيا عند « ماريانا » أول مرة ، فقال مستفهماً : هل في الأمر علاقة « بماريانا » ؟ فأجابته ، بأنها لو أطالت الجلوس لباخ الغضب بعد ذلك . ولو أنهما تواعدا أمام « ماريانا » لوقعت في براثنها بلا رحمة ، فإما أن تطيعها في كل ما تقوله لها وإما التهديد والإنذار ، فربت على خدها وكأنه طفلة أجـــادت درسها وأعجب بحصافتها .

ويصلان إلى المكان المقصود ويجلسان في المطعم وتطلب « أليس » قطعة من اللحم المقدد ، طلباً للنحافة ويدور بينهما هذا الحديث .

ـ لا أدري من تريدين ان ترضيه بالنحافة التي تطلبينها .

ـ الحقيقة انني مظلومة في حياتي وخصوصاً في الزواج ، لقـــد جنى علي أهلي . . . فقدت رحمة الأم ولم أجد أملي وأنا كبيرة .

كنت بنتاً بريئة : أحب اللعب والمرح ، فلما كبرت كانت نفسي متفتحة للحياة وأفكر في مستقبل سعيد ولكن خاب أملي . ثم تخرج منديلاً تمسح به دموعها ثم تستمر في الحديث معه قائلة :

كانت أمي قاسية عليّ . تزوجت في العشرين من رجل في الخمسين فلم أسترح في زواجي وكان أهلي يلحون علي في الزواج منه لثرائه . ولكن هل الثراء كل شيء ! لو تزوجت رجلاً يملأ عيني ، ويحقق معنى الرجولة كنت عشت سعيدة ، وقنعت بقسمتي .

ولكن حظي خاب في الزواج : ووجدت قلبي فارغاً من كل شيء ولم أستطع صبراً على الفراغ الذي أعيش فيه .

ثم طلبت منه أن يكون حكماً عادلاً في حالتها فيبادرها العقاد بقوله : تطلبين مني الحكم ؟ أنا حاكم مغرض ، لا تنفعك شهادتي لكن الذي أستطيع أن أقوله : قليل من ينصفونك !

فترد عليه قائلة : أنا لست في حاجة إلى إنصاف الدنيا ، توفره لمن يريده ، وينصرفان ليلتقيا في اليوم التالي بمنزله .

وانتظرها العقاد يومذاك في بيته وحضرت إليه في الموعد المحدد فقد كانت تلك المرأة تحافظ على مواعيد العقاد . فقد كانت لا تخلف الموعد دقيقة واحدة بل تأتي قبل الموعد دائماً بدقيقتين أو ثلاث . وفي ذلك يقول :

« كان همام ممن يقيسون ارتقاء المرأة بسلوكها في مسألة المواعيد .. فأبغض النساء إليه المرأة التي تحسب سرور الرجل بلقياها سبباً كافياً لتنكيده بالانتظار وتكديره بالإبطاء في الحضور إلى الموعد ، ولو كان في وسعها أن تسبقه إليه . . . ولاحظ أن سارة تتحرى الدقة في رعاية المواعيد ، ففرح بمعرفتها ورحب بالعلاقة بينه وبينها [1] » .

---

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية ص ١٤٢ – ١٤٣ .

لقد ملأت « أليس » حياته سروراً ومرحاً وتمتع إلى جوارها بسعادة لم يشعر بها في حياته من قبـل ، وأصبحت هي الوحيدة التي لا يغني عنها أحد . فقد كان يجتمع معها في البيت فيخلو من كل إنسان غيرهما فتقوم بترتيبه وتنظيمه وتعـد الطعام بنفسها ويقضي أسعد أيام حياته حين يلتقيان معاً .

« وقـد جعلا خدمة المنزل شعائر مقدسة كالشعائر التي يتولاها الكهان فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها ، هي في يدها المكنسة وهو في يده سكينة التخريط . . أو هي تملأ الأطباق وهو ينقلها إلى المائدة . حتى إذا حان وقت الطعام مثلت إلى جانب المائدة في وقار وخشوع وقالت : انتهى دور الخدمة فتفضلوا أيها السادة ! »

وتتسرب على المنزل أنبـــاء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة في معظم الأيام . فيقرآن أو يسمعان بعض الأغاني ، أو يلعبان « الدومنة » قليلاً وهي لعبة تحترفها « أليس » ويعتقد هو أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة .

وقد كان العقاد يفلسف كل شيء حتى اللعب يجد له فلسفة وقد سمعته مرة يقول : « إن اللقمة التي أستطيبها لا أستطيبها وحسب ، بل تصبـح فكرة بعد أن كانت ذوقاً »

ويقول في فلسفة اللعب :

« الشطرنج والضامة يعولان على الحيلة وكل شيء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء وكل شي فيه مكشوف بعـــد ذلك ، والورق إما مصادفة وإما صراع قلما يشبه صراع الحياة . أمـا الدومينو ففيها حساب للمصادفة وفيها حساب للتدبير وفيها حساب لليقين وفيها حساب للظنون وفيها حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك ، وللغيب الذي أنت تجهله ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء . ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما في يديك » .

وتسمع منه « أليس » هذه الفلسفة العجيبة فتضحك وتقول له : أنت تفلسف كل شيء !!

ويجيبها العقاد : « إنني أستمتع بالشيء ، ثم أبحث عن فلسفته » .

توالت زياراتها للعقاد ، وكانت خـلال تلك الزيارات تتحلى بأجمل زينتها ، وكان هو يعتبر هذا منها تقديراً لمكانته لديها ، وكانت تلتقي معه في حب الفكاهة الجادة لا تلك الفكاهة المبتذلة التي تستميل كثيراً من الناس .

هو يحب المرأة الإنسانية مجردة عن الحيوانية التي يراهـــا في بعض النساء . . . لذلك كله شغف العقاد بتلك المحبوبة فرآها أجدر

بنات جنسها بان يوليها قلبه وهو مطمئن إليها . وقد أسعدت ذلك القلب وملأته غبطة وسروراً .

كانا يخرجان للنزهة فيخيل لمن يراهما أنهما زوجين لا عاشقين يخطوان إلى محراب الحب العنيف . . كانت تصحبه إلى الأوبرا وكانت تصحبه إلى الأهرام تارة وإلى القناطر الخيرية تارة أخرى .

وأحياناً يقضيان بعض الوقت في زورق في مجرى النيـــل في الليالي القمراء وينام ربان السفينة وهما يستمتعان بنعيم الحب ويتناجيان في همس . وفي ذلك يقول العقاد شعراً :

لك وجـه كأنه طابـع الصدق   على صفحـــة الزمان المألوف
إن يوماً يمر بي لا أراه هو   يوم أعـــده في الزيوف

وروى الأستاذ الجبلاوي نقلاً عن صديقه العقاد أنه بينما كان وبرفقته « أليس » في نزهة إلى جوار الأهرام روى لها العقاد نكتة فانطلقت من فمها ضحكة مجلجلة فنظر إليها مستنكراً . فقالت له : لا تنكر عليّ ما رأيت ، أنا أريد أن أوقظ الفراعنة ليشاركوني هذه السعادة .

وبهذا الرد اللطيف أمكنها أن تفلت من لوم العقاد لها (١) .

---

(١) « في صحبة العقاد » للأستاذ طاهر الجبلاوي–الأنجلو المصرية ص ١٦٨ .

قنع العقاد بالعلاقة الحلوة بينه وبين « أليس » . إن حضرت سره حضورها ، وإن غابت لم يغضبه غيابها . فهو لا يفرض عليها حقاً ولا يحسب أنها تفرض حقاً عليه . ويتصلان وينفصلان ولا قلق في الأمر . ولا استطلاع ولا استكراه : لها وقتها كله وله وقته كله إلا ما يشتركان فيه من الوقت فهو لهما على السواء بلا اقتسام ولا جور ولا اعتداء .

غير أن « أليس » لم يعجبها هذا الجدول المترقرق المنساب وأبت إلا أن تراه شلالاً يعج ويثور ، ويضطرب ويمور ، فنصبت فيه الحواجز وأقامت فيه الصخور .

فبدأت تستعجل الانصراف في بعض زياراتها له وتعتذر إليه بموعد أو بمصلحة أو بما شابه هذه المعاذير ، فيأذن لها ولا يمسكها ، فلا يعجبها ذلك .

وقالت له يوماً بصراحة نادرة في بنات حواء : « إنه لو أمرها بالبقاء لبقيت وهي مسرورة » .

« وقالت له إنه لو فضل موعدها على كل موعد غيره لفهمت أنها أثيرة عنده وأن لقاءها محبب إليه مفضل لديه . فلما قال لها إنه يفضل لقاءها على غيره إذا كان حراً في الارتباط بهذا أو بذاك ، قالت : هذه حجج يحتج بها الرجال حين يريدون ، وينبذونها حين

لا يريدون ، وإنه لو ترك من أجلها ميعاداً لتركت من أجله مواعيد [1] » .

وذات زيارة لها استباحت لنفسها أن تفتش في أوراقه الخاصة فعثرت فيها بصورة فتاة هيفاء ممشوقة القوام في غلالة تنم على محاسن بدنها وانسجام أوصالها فصاحت به : عابسة ما هذه ؟

وكان العقاد قد نسي الصورة ونسي أنها هناك .. فنظر إليها وقال بغير اكتراث : فتاة راقصة !

فقالت له : وفيم تحتفظ بها ؟

قال : صورة فنية جميلة ، كأنها تمثال ، كأنها تحفة .

قالت وهي تنظر إلى توقيع الفتاة وخطها الركيك : ولماذا هذا التوقيع ؟ ولماذا لم تقرنها بثانية وثالثة ورابعة ؟ أهي الراقصة الوحيدة التي راقك جمالها ؟

فقال العقاد : إن كان لا يقنعك إلا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس في الأمر صعوبة . . ثم قال : لو علمت يا خبيثة مقدار ما وهبك الله من حدة الذكاء لأنفت أن تغاري من صاحبة هذه الصورة وأنت ترين « أميتها » ماثلة في خطها .

---

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية ص ١٥٤ .

فقالت : أو تظن أنني أبتهج بأن تحبني لحدة ذكائي وتحب هذه الراقصة لما .. لما لست أدري ما أنت واجد فيها ؟

قال العقاد : أنا لا أحبها .

قالت : أصحيح ؟ إذن هل أنا في حل من تمزيق الصورة ؟

قال : لا أمنعك ، ولكنها خسارة .

قالت : أهي خسارة ، أم تخشى أن تسالك عنها صاحبتها ؟ إنني لا أنافس الراقصات يا سيدي ! فاحتفظ بالصورة كما تهوى ، ولكن أرجوك أن ترد إلي صورتي . فلست أختار أن تقيم هنا وأمثال هذه الصورة في مكان واحد .

فكبر الأمر على العقاد وأحس لأول مرة أن فراق سارة يثقل عليه ، فقال لها : إن كان لا يريحك إلا أن تمزقي الصورة فمزقيها .

فما أمهلته أن يتم الجملة حتى قبضت على الصورة تمزقها كل ممزق كأنها تضمر لصاحبتها ضغينة وهي لم ترها ولم تسمع باسمها .

ويروي العقاد معقباً على ذلك الموقف أنه لا يذكر « أن رأى امرأة تفرح هذا الفرح وهي تمزق ورقة إلا المرأة الجاهلة التي أسلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق زعم أنها هي الرقية التي كتبتها لها الضرائر ليبتلينها بالسقم في جسمها والنكد في عيشها فمزقتها وكأنها تود أن يصير جسمها كله أيادي لتشترك في التمزيق » .

وهكذا أخـذت « أليس » تحاسب العقـاد وأخذ هو في محاسبتها . وكان يشعر بالتضييق عليه منها في بعض الأحيان ، ولكنه كان لا يضجر ولا يتبرم ، فبدأ يفكر فيما تصنعه وفيمن تقابله وتلقاه أثناء غيابها . فتعود أن يسألها ويتحرى حركاتها ففرغ لها وقرر أنه لا يقنع منها بمـا دون الاستئثار والتفرد . فانقلب الجدول الهادىء المنساب رويداً رويداً ، فغـاب فيه الحمل الوديـع وبرز منه الأسد المتحفز ، ولو ظل كما كان جدولاً وديعاً لصفا واسترسل أو لانتهى على الأقل كما ينتهي النهر إلى مصبه في رفق وسخاوة .

* * *

ربما كان ذلك سبباً من أسباب هذا الحب العنيف . ولكن هل للحب العنيف سبب واحد في أغلب الحالات ؟ ! لا نعتقـد . فهناك أسباب كثيرة ومتعددة ، منها كما يقول العقاد نفسه : « لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد والتنويـع ، فإن الرجـل ليسره أن يستكشف المرأة ، ويسره ألا يزال واجداً فيها كل حين ميداناً جديــداً للاستكشاف ، ويسره أن يراقب المرأة وهي تستكشفه وتتخـذ لها منسرباً إلى عواطفه ، وترفع من دخائله حجاباً وراء حجاب ، ويسره أن يستكشفا الدنيا معاً والناس معاً والطبيعة معاً بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ،

وضياء كله شفوف وتجديد وآفاق تنفساح إلى آفاق [1] » .

ويستطرد العقاد قائلاً :

« فإن وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سبباً للسآمة والعزوف لا سبباً للشغف والهيام .

وإن المرأة في استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدي أولاً وآخراً إلى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة إلى تلك الرهبة ، ثم يرتع في صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها .

وإن الرجل في استكشافه المرأة لكمن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدي إلى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها . فهو يكتشفها ليعرف أحلى ما فيها وهي تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه . ثم تصبح الروضة روضة وغابة ، وتصبح الغابة غابة وروضة ، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به إذا خرجا إلى الدنيا ، ولا يشعران به وهما بنجوة منها [2] » .

وهكذا أخذ العقاد وأليس يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان

---

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية ص ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق .

أنهما يتكاشفان . . بل صارا يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه كأنهما رحالتان في نزهة طويلة ، ويشتركان في مراجعة عمل النهار كلما سكنا إلى ظلال الخيمة في ظلام المساء .

كان يراقبها في نفسها ويراقبها في نفسه : كان يرى المرأة المرحة الطروب وهي تلهو وتعبث ، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهي تلتمس الأمان والعزاء ، ويرى الإنسانة الفطرية وهي تطيع الغريزة وتلبس « دورها » على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها ، ويرى المرأة الذكية وهي تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة ، ويرى المرأة العصرية وهي تتغلب على امرأة الجيل الغابر في ميدان ، وتخضع لها وتنهزم أمامها في ميدان ، ويرى من وراء ذلك جميعه وفي خلال ذلك جميعه المرأة الخالدة التي لا تتحول ولا تتبدل ، والأنثى السرمدية التي يهمها من « الذكر » الحماية والجاه قبل كل شيء وبعد كل شيء ، ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب إلا لأنها وجه من وجوه الحماية والجاه . .

لقد عرفت « أليس » في صاحبها بزكانة المرأة في شهر واحد ما لم يعرفه أصدقاؤه وخلطاؤه في أعوام . فكانت تقول له : إن الزوبعة منه لا تخيف ولا تطول بمقدار ما يخيف الاستقرار الذي بطل فيه التردد وخلا من كل هياج وكل ثورة ، وتقول له : إنني إذا

أردت أن أهزمك لم أبرز لك بسلاح ولم ألبس لك شكة الحرب فأقودك من أذنيك .

لا شك في أن لهيام العقاد بتلك المرأة بالذات أسباباً مختلفات ، بعضها محدود واضح المعالم والبعض الآخر مزيج من شتى أسباب لا تتضح لها حدود . فمن الأسباب الواضحة أن العقاد كان يحس إحساساً شديداً أن توديع هذه العاطفة قد يرادف في معناه توديع الحياة . .

ويقول في ذلك معللاً :

« لأنه تعلق بها وهو في العقد الرابع من عمره . فإذا انقطع ما بينه وبينها فمن له بفتاة تخلفها في مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها ؟ وإذا وجد الفتاة فمن له بالقلب الذي يلبي دواعي الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة ويغامر اليوم في عاطفة مرجوة وقد كان بالأمس في عاطفة يائسة مضيعة ؟

إن خبت هذه العاطفة فهي جذوة الغرام الأخيرة ، وعليه أن يذكيها ويرعاها كما كان الأقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة أن تنطفىء فلا يستعيدوها قبل أن يحذقوا صناعة الزناد والثقاب[1] » .

كما كان من أسباب حبه العنيف لها تلك الألفة التي نشأت

---

(١) « سارة » الطبعة الثانية ، ص ١٦٤ .

بينهما وتغلغلت في أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر : فمن شاء أن يسميها حباً فهو صادق ، ومن شاء أن يسميها بغضاً فهو صادق ، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه . ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو ساخط عليه . فقصارى القول إنه يتعاطاه ، وإن الإقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة .

وجملة القول في هذا الهيام بين العقاد « وأليس » أن أسباب الحب العنيف ـ وهي الألفة ثم المتعة ثم التفاهم إلى درجة الاتفاق على الأمور وإلى الاختلاف في الأمور الأخرى ، قد استحكمت ، فاستحكمت نتيجة لذلك أواصر الملازمة وتلاحمت وشائج الفتنة . فلما أخذ يحاسبها على حقوق الوفاء ، ويتقاضاها أمانة الإخلاص ، لم يكن ذلك غلواً منه في تنزيه العصمة الإنسانية ولا غلواً منه في تنزيه عصمتها ، ولكنه حاسبها ذلك الحساب لأنه حتم لا مندوحة له عنه ، ولأن السكوت عنها كان أشق عليه من حسابها .

تدور الأيام دورتها والعقاد يملأ قلبه حب « أليس » . وذات يوم أرته خطاباً من صديق يقول لها فيه إنه ينوي شراء سيارة ويحب أن يستأنس برأيها وذوقها في اختيار اللون والطراز . فأذن لها العقاد وقال لها مازحاً « هذا موعد يرشحك لصناعة مفيدة . . فلا تهمليه . . » .وقصت عليه قصة ذلك الصديق معها ، واشتم العقاد

رائحة للخيانة. فتعاركا واصطدما فافترقا، وسافر إلى مصيفه برأس البر وسافرت هي إلى مصيفها بلبنان. ثم عاد من مصيفه وهو غير طامع إلى لقائها، ولكنه بعد أيام قليلة تلقى العقاد غلافاً من صور شمسية تمثلها إلى جانب بعض المشاهد الخارجية التي يرحل إليها المصطافون والسائحون. ومضت أيام معدودات وإذا بجرس التليفون يدق وإذا بالمتكلم ذلك الصوت الذي لا يلتبس عليه بين ألوف الأصوات، وطلبت منه أن يسمح لها بمقابلته فقال لها تفضلي. فقالت: أتفضل؟ لا. لست أتفضل، ولكني أزورك لألتمس الغفران. فهل في وسعك أن تمثل دور الكاهن في الديانة المسيحية؟

قال: أخشى أن يكون دورك إذن هو دور الخاطئة؟

قالت: هو ذاك فإلى اللقاء ...

لم يشعر العقاد يومذاك وهو ينتظرها بخداع أو استغفال. ولكنه شعر بخسارة وأسف. وانتظرها وهو يشبه الطبيب الذي ينتظر مريضاً يلجأ إليه. واستقبلها عاطفاً عليها متطلعاً إلى ما وراء حديثها مستعداً للتسامح في الإصغاء إليها. فدخلت وهي تقول له في غير احتجاز ولا امتناع:

ـ لا قبلات ولا تحيات حتى تعرف قصتي وأعرف رأيك.

وقالت له في تلك الجلسة إنها لا تؤمن بصداقة المرأة للمرأة، وإنها لم يكن إلى جوارها رجل تهابه وتحبه وتعتمد عليه كسند لها

فهي في وحشة الهالكين ، واعترفت له بضعفها في عدم دفع الغواية . وأضافت قائلة : « لقد افترقنا يائسين ليس لك حق عندي وليس لي حق عندك وأنا لا أحاسبك على شطحاتك في مصيفك إن كانت لك شطحات ولكني أسمح لك أن تحاسبني على الصغيرة والكبيرة [1] » .

وفهم العقاد أنها زلّت في المصيف وانغمست في صلة غرامية ، وأنها الآن تعود إليه بعد أن قطعت تلك الصلة وهيأت نفسها لاستئناف مودتهم القديمة وها هي تعرض نفسها عليه .

كانت « أليس » في اعترافها بتلك القصة الغرامية التي وقعت لها في المصيف أشبه بتلك المرأة الصريحة التي تقف بين يدي الكاهن تعترف بخطإها دون أن تخفي عنه شيئاً . ثم قالت له بعد أن روت له القصة كلها : هل تقبلني ؟ فكان رده عليها إنه لا يستطيع أن يجيبها بالرأي النهائي في تلك الليلة لأنه إن قبلها فلا يضمن أنه سوف لا يندم مستقبلاً وإن رفضها فلا يضمن ـ أيضاً .

ورأى أن تمهله أياماً ريثما يروض نفسه على عزم وثيق وسيخبرها بما عقد النية عليه .

وبعد أيام استقبلها العقاد صافحاً وسألها أن تذكر دائماً أنه قد

---

(١) « سارة » الطبعة الثانية، ص ٣٩ .

يفهم عذرها من الضعف ولن يفهم لها عـذراً من الختـل والخداع . وحمـد لها صراحتها ولكنه في الواقع لم يسلم من الاحتراس والتوجس منذ تلك الساعة . ولم يزل على تفاهم دخيل بينه وبين طواياه أنه لا يأوي إلى حصن حصين ، وأنه مع ذلك هو حصنه الذي لا بد أن يأوي إليه [1] !

ولكن شبهات الشك ساورته نتيجة لبعض الدلائل من فلتات اللسان وشوارد الخاطر وعلامات الزينة والحلى والملابس وما إلى ذلك من علامـات هي لمن يعهدها أثبت من البراهين وأصدق من الشهود .

وبدأت السآمة ترفرف في كل لقاء ، وبدأت اللواعج والأشجان تتغلغل مع كل فراق فغلبت الأكدار على كل صفاء وكل رجاء . وعانى العقاد معاناة شديدة ، وداخلته الحيرة التي ما بعدها حيرة . هل يستغرق في حبها ويسمح لها أن تفرغ لغيره وفي هذا استحالة ما بعـدها استحالة ! أو هل يقبلها على أن يلهو بها وتلهو به وهـذا مستحيل ـ أيضاً ـ فلم يبق أمامه إلا القطيعة وقد اعتزمها لا سيما وأنه قد استطاعها من قبل سفره إلى المصيف ، وقبل أن تعترف له في المرة الأخيرة .

---

(١) المرجع السابق .

وخلال تلك الأيام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب ، فإذا انفتح البــاب للقاء فذلك شعور القائد الذي يفتح باب حصنه ليتلقى نجدة الأمان والاطمئنان إلى زمن طويل ، وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب إلى مهرب سحيق . وإذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور كشعور الشارب الذي استوفى نصيبه من العقار ، وبقي له نصيبه من النشوة والتذكار ، ونصيبه من الشوق في الغد إلى مثل هذا اللقاء ومثل هذا الوداع ومثل هذا الانتظار .

قرر العقــاد في النهاية أن يتحول بقلبه رويداً رويداً عن « أليس » وهو مشفق عليها كإشفاق الأبوة الرحيمة أقرب منه إلى إشفاق الغرام اللجوج ، وإذا به في ساعة من الساعات يكتب إليها هذه الرسالة :

« أيتها الصديقة .

أياً كان رأيي فيك أو رأيك في فلا ضير في إرسال هذه الكلمة إليك ، ولا خسارة عليّ إن ضاعت عندك أو صادفت نصيباً من الإصغاء . . . إن مسحة من الألم ألمحها على وجهك تخيل إليَّ أنني أخاطب منك مستمعاً ، وإن موضعاً حياً في ضميرك لا يزال مفتوحاً لهذا الخطاب .

لا حاجة إلى البحث في تفاصيل حياتك القديم ، منها أو الجديد ، فحسبي ما سمعته من لسانك ، وحسبي أنك تعترفين لي أنا بعلاقات



ماضية مع أكثر من رجل واحد . وفي هذا كفاية وفوق الكفاية !

فلو قيل لي إنني سأسمع هذا الخبر من إنسان لما خطر لي قط أنني أسمعه منك أنت باختيارك ، ولو جاز أن تبوحي به لكل أذن لكانت أذني هي الأذن الوحيدة التي يجمل بك أن تكتمي السر عنها ، لأنني أنا الوحيد الذي يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ، ويجب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة .

ومع هذا ، بأي بساطة كنت تتحدثين عن علاقاتك بالرجال وخلوتهم بك هنا وهناك . . لكأنما كنت تفخرين ! . . أو كأنما كنت تشفقين من كتمان هذا الحظ السعيد ! فيا صديقتي ، لشد ما ضلك الشقاء حتى جهلت ما تعرفه المرأة بالفطرة بغير حاجة إلى تعليم أو تلقين ، وحتى نسيت أن المرأة تستطيع أن تكون لهذا ولذاك ولكنها لا تستطيع أن تفخر بشيء لم تعجز عنه امرأة بين النساء . فهل أصدق حقاً أنك أنت تلك المرأة التي لم يبق لها إلا هذا الفخر المخجل الأليم ؟ وهل أنت حقاً تلك المرأة التي تجد سعادتها في هذا المجال ؟ !

أظن وأرجو أن يكون ظني صحيحاً ـ أنك تخدعين نفسك يا صديقتي الخادعة، المخدوعة ... لست أنت التي تشعر بالسعادة في هذه العيشة الأسيفة .

غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها ، ولكن شقاءك أنت بهـا لا يعدله شقاء .

أنظري إلى وجهك في المرآة . أنظري إلى ألم ضميرك الذي يبكيك كثيراً ولا ريب في ساعات الوحدة والانفراد .

ثم اسألي نفسك : ما نهاية كل هـذا وما العاقبة وما المصير ؟ لو بقيت على هذه الحالة سنة واحـدة لفقدت جمالك في عنفوان شبابك وفقدت كل ثقة بنفسك واحترامك لشعور الأنوثة الذي لا سـعادة لامرأة بغيره . وماذا في الحياة بعد فقد الثقة وفقد احترام الشعور ؟ أنت في تلك الحالة بين اثنتين : إما أن تالفي العيشة التي تؤلمك الآن وهذا هو موت النفس الذي يموت به كل سرور صحيـح .

وإما أن تتعذبي بها أبداً بغير عزاء يهون عليك فقـد الصحة والنضارة ، وأنت إنما تفرين من العـذاب وتطلبين الراحـة والاطمئنان .

انت تتألمين ولكنك تجهلين ما يدفع عنك هـذا الألم المخيف . . فاذكري نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التي كانت تساورك حين تحضرين إليّ ، واذكري كيف كنا نفترق وقـد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة . . كان اهتمامي بك حـتى بالغضب عليك يفرج شيئاً من الضيق الذي يسد عليك منافذ الأمل ،

لأنه يعطيك فكرة عالية في نفسك ، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذي يسمم كل شعور وينغص كل نعيم .

أذكري كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهـــد قريب ، وكيف ظهر ذلك على صحتـــك وملامحك فسألتني في يوم من الأيام بين الجد والمزاح : أصحيـح : أصحيـح أن وجهي يمتلىء ويحلو ؟ كان ذلك وأنت تشعرين إلى جانبك بنفس إنسانية تحنــو عليك وتفكر فيك وتجتهد في عذرك ما استطاعت ، وترعاك في الغيبة والحضور ، وهذا أحوج ما تحتاج إليه المرأة خاصة في هذه الحياة .

فكل امرأة – كل امرأة بلا استثناء – في وسعها أن تجـد رجلاً يأخذها جسداً ويطرحها سائماً بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام . ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التي تفهم الدنيـا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميـع الناس وتراها أهلاً للرضى والغضب والملام .

أنت أم فاذكري ذلك جيداً ..»

ثم ختم العقاد رسالته قائلاً :

« أنا لا أيأس على الرغم من كل شيء . . بي من عطف عليك وعلم بحقيقة نفسك الضعيفة الطيبة و « ظروفك » السيئة ما يمنعني أن أنظر إليك نظرة قاسية .

وما تمنيت ولا أتمنى شيئاً كما أتمنى أن أراك بعين الإعجاب والفخر والمحبة. ولكني أقول لك وأنا آسف: إن فقدك لم يكن هيناً علي في وقت من الأوقات كما هو هين علي الآن. فإذا كتبت إليك هذه الكلمة فإنما هي كلمة صديق يريح ضميره وواجب أخير لا بد من أدائه، وإذا أبيت إلا أن تفهمي لها معنى من معاني الأنانية فافهمي إذن أنها كلمة إنسان يذكر برهة من حياته ويود أن يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة إلى آخر أيام الحياة. والوداع والسلام[1] ».

بعد هذه الرسالة قرر العقاد أنه لا بد من الرقابة. ولكن أين له بالرقيب الأمين الصادق. إن هو استأجره ليقوم بهذه المهمة فهو في حاجة إلى رقيب عليه لضمان إخلاصه وجده وحسن التبصر في عمله. لأنه لو تركه بغير رقيب فأغلب الظن أنه سيأتي له في آخر كل نهار ومعه كشف طويل عريض بأجور السيارات والجلوس إلى القهوات ورشوة الخدم والبوابين، ولا فائدة من جميع ذلك غير التضليل والمراوغة والتشويق لاستطالة الرقابة واغتنام الأجور.

هذا من ناحية، أما الأخرى فقد احتمل العقاد أن الرقيب المأجور ربما استغل معرفته « باليس » كلما احتاج لابتزاز المال فيهددها أو ربما أطلعها على مهمته وأفسد الأمر فساداً لا صلاح بعده.

---

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية ص ٥٥ – ٥٦ .

إزاء ذلك كله قرر العقاد أن الرقيب لا بد وأن يكون صديقاً صدوقاً ولم يكن أمامه من الأصدقاء إلا صديقه الشاعر محمد طاهر الجبلاوي الذي أسماه « أمينا » في قصته وفي ذلك يقول العقاد :

« لم يكن همام قد نسي أميناً في مشكلة الرقابة ، وليس أمين بالصديق الذي ينسى في مشكلة من قبيلها ، لأنه يؤمن بالواجبات الشعرية أشد من إيمانه بجميع الواجبات الإنسانية وهو ذو أريحية ومروءة وصدق لسان وصراحة شيمة .

ويحسب أن خيانة الصديق في العشق لا تقل عن الخيانة في أقدس الحرمات [1] .

لقد غدا العقاد « وأليس » في تلك الأيام يحرقان من لفائف الحب أضعاف ما أحرقا في عنفوانه وانطلاق طوفانه ، ولكنهما يفرطان في الحب ويتكلفان الإفراط لشعورهما بقنوطه لا لشعورهما برجائه ، ولإقبالهما على شتائه الأجدب لا لإقبالهما على ربيع بهجته وروائه .

لقد كانا في عنفوان الهوى يتشاجران ولا يباليان بالشجار ، ويتغاضبان ولا يحفلان من الغضب ، ويختلفان ويلحان في الخلاف

---

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية ص ٧٣ .

ولا يتحرزان من الخلاف والإلحاح : جسم فتيٌ قوي فماذا تضيره هبة عاصفة أو نفحة من هجير .

فلما شاخ الحب أجفلا من الغضب والخلاف ، كما يجفل الشيـخ الهرم من غضبة تنذر بالقضاء عليه ، فلا هما هانئان بوئام ولا هما قادران على خصام .

سرور مشكوك فيه ، وإن غاب عنك الشك فهو هزيل .

وألم حق لا شك فيه ، ثم يتلو اللقاء فيزيد هماماً علامة من علامات الخيانة التي ليس بعدها من إقنــاع عنده غير يقين اللمس والعيان .

وإنهما ليدافعان الغضب والخـلاف ويطاولان المغالطة والمراء إذاً بالغضب يدفعهما في شلاله بين صخوره وأوحاله ، فيندفعان ويندفعان كأبشع ما يكون الهياج والثوران ، وكأنما هما نادمان على ما كان من مصانعة وبهتان .

كلا ! لا جدوى من المراء ، لا بقاء لهذه الحال . لا مناص من الفراق إن كان لا مناص منه .. ولا مناص[1] !» .

قرر العقاد أن يلتقي « باليس » عند مفترق أحد الطرق بضاحية مصر الجديدة ليعطيها أوراقهـــا وصورها وذكرياتها ويسترد منها

(١) سارة للعقاد الطبعة الثانية ص ٦٥ - ٩٦ .

أوراقه وصوره وذكرياته شأن كل المحبين حينما يتفقون على الفراق حتى لا يبقي أحدهم لصاحبه شيئاً من أشيائه أو ذكرى من ذكرياته .

ويصور العقاد تلك اللحظة التي أخذ يجمع فيها كل ما لديه من أوراق بقوله :

« وقبل الموعد بساعة أخذ في جمع تلك الأوراق ومراجعتها ليعلم فيها ما هو مطلوب وذو بال وما هو مهمل ومطروح ، فيالله كم تبلغ الورقة الخفيفة من وقر وفداحة ! وكم تختلف المعايير والأحجام في موازين الأكف والأذهان : لقد كانت الرسائل والصور والهدايا كلها ، لا تملأ حقيبة صغيرة تحملها اليد الواحدة ، ولكنه كان يحمل الورقة منها وكأنما يزحزح جبلاً راسخاً يشل السواعد والأقدام دون صخرة واحدة من صخوره .

ومشى إلى الموعد مشية لا اختيار فيها ولا إكراه ! مشية الرجل الذي يسعى بقدميه إلى غرفة الجراحة ليبتر عضواً من أعضائه غير آمن أن يكون في بتره الموت ، أو مشية الأمهات اللواتي كن فيما مضى يحملن فلذات أكبادهن إلى مذبح الأرباب ، قرباناً غير رخيص ولا مزهود فيه .

وسبقها إلى الموعد فانتظرها دقائق معدودات لاحت له كأنها آباد ، ولكنه في الواقع كان لا يتمنى لها الفوات .

ثم أقبلت في ثوبها العنابي وطرتها المشتهاة ، ونظرت إليه وهمت

أن تنحرف إلى ناحية الصحراء . . وكانت الطريق في تلك الساعة خالية إلا من عابر بعيد أو عابرة بعيدة [1] » .

ولم يفت العقاد أن يسأل نفسه : لماذا انحرفت صاحبته إلى ناحية الصحراء ؟

إنه حكم العادة وإن كان قد ظن أنها فعلت ذلك خشية الانفراد والأمن من الأنظار ، وخشية ما يزجيه الموقف المنفرد من كلمة أو عبرة أو نظرة وجيعة ، وخشية الوهن والتردد والإرجاء ! وخشية العودة من البداية إلى التيه المفزع الذي أشرف في تلك اللحظة على النهاية ، وتلك جرعات لا يطيب للفم أن يترشف منها كل يوم .

وأخذ منها وأعطاها ، وسلم ولم تجبه أو سلمت ولم يجبها ، أو نسيا السلام والوداع معاً وافترقا في طريقين متدابرين .

لقد كان العقاد وهو في ذلك الموقف كمن في جو من الغم واليأس يجتاحه الضباب الكثيف من كل ناحية ولا تسترسل العين إلى مدى بعيد ولا ترى ما حولها إلا في غلاف من نسيج الأطياف . وكل ما كان يذكره بعد الافتراق أن جسماً غاب عن النظر ولم يشيعه وهو يغيب .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٨ .

وعاد لمنزله وتهافت على أقرب كرسي في أقرب حجرة وكان أشبه بذلك العائد من مسيرة أيام لا مسيرة لحظات .

وكان في منزله صديق قديم يعلم أين كان . فلما طال سكوت العقاد وعزوفه قال له ذلك الصديق يمازحه ويسليه : علام أنت آسف يا صاح ؟ ؟ هل تركت فيها من بقية وطر تشتهيها ؟ هل عندها من متعة لم تستوف شبعك منها ؟ فما بالك تأسى وتكتئب وقد أراحك الله من زمانها بعد أن نعمت بروحها ولبابها ؟

ويقول العقاد معقباً على قول ذلك الصديق :

« عزاء حسن حين تكون المرأة التي تفقدها مائدة تفرغ منها وقد أتيت على آخر لقمة فيها . أما حين تكون جزءاً من الحياة لا تنفصل إلا فصلت معها شطراً من لحمها ودمها وظاهرها وباطنها فذلك أضعف العزاء ، بل هو نقيض العزاء .

- إنما يعزيك الزميل الذي تحسه قريباً منك بشعور مثل شعورك . . ولقد يغنيك من عزائه إحساسك بقربه ساعتئذ وهو صامت واجم دون كلام أو إيماءة »[1] .

خلال تلك الأيام نظم العقاد قصيدة « يوم الظنون » صور فيها حاله وحال الشك في صاحبته . ذلك الشك الذي كاد أن يقضي عليه :

---

(١) « سارة » للعقاد الطبعة الثانية ص ١٠٠ .

يوم الظنون فقدت فيك تجلدي وحملت فيك الضيم مغلول اليد
وبكيت كالطفل الذليل أنا الذي ما لان في صعب الحوادث مقودي
وغصصت بالمـــاء الذي أعددته للري في قفر الحياة المجهـد
لاقيت أهوال الشدائد كلهـــا حتى طغت فلقيت مـــا لم أعهد
نار الجحـــيم إليَّ غير ذميمة وخذني إليك مصارعي في مرقدي
حيران أنظر في السماء وفي الثرى وأذوق طعم الموت غير مصرد
أروى وأظمأ عذب ما أنا شارب في حـــالتي نقيـع سم الأسود
وأجيل في الليل البهيم خواطري لا شارق فيه ولا من مسعد
وتعيد لي الذكرات سالف صبوتي شوهاء كاشـــرة كما لم أشهد
مسخت شمائلها وبدل سمتها وبدت بوسم في السـعير مخلد

ثم نراه ينظم قصيدة أخرى لا تقـــل عن سابقتها في تصوير الحالة التي عاشها ذلك الشاعر المحب، وهي بعنوان «نفثة» ، يقول فيها:

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا عذب المدام ولا الأنداء ترويني
حيران حيران لا نجم السماء ولا معـــالم الأرض في الغماء تهديني
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدا نيني ، ولا ســـمر السمار يلهيني
غصان غصان لا الأوجاع تبليني ولا الكوارث والأشجان تبكيني
شعري دموعي وما بالشعر عن عوض عن الدموع نفاها جفن محزون
يا ســـوء ما أبقت الدنيا لمغتبط على المدامع أجفان المساكين

هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم   وما استرحت بحزن فيَّ مدفون
أسوان أسوان لا طب الأساة ولا   سحر الرقاة من اللأواء يشفيني
سأمان سأمان لا صفو الحياة ولا   عجائب القدر المكنون تعنيني
أصاحب الدهر لا قلب فيسعدني   على الزمان ولا خل فيأسوني
يديك فامح ضنى يا موت في كبدي   فلست تمحوه إلا حين تمحوني

ويعرض على العقاد صديق من خلصائه أن يقبل « أليس » كامرأة ويستمتع مما تهبه من متع الحياة ولهوها فتأبى نفسه عليه ذلك فيقول شعراً :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى   وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسماً مستباحاً وطالما   لقيتك جم الخوف جم التردد
رويدك إني لا أراك مليئة   بلذة جثمان ولا طيب مشهد
جمالك سم في الضلوع وعثرة   ترد مهاد الصفو غير ممهد
إذاً لم يكن بد من الحان والطلى   ففي غير بيت كان بالأمس مسجدي[1]

ونراه – أي العقاد – ينظم أيضاً قصيدة جعل عنوانها « الموت والخيانة » يقول فيها :

تأسى على الميت يا قلبي ولست ترى   حزناً على خائن ألقيته بيد ؟ !
كلاهما ميت يبكي لفرقته   والموت في الروح غير الموت في الجسد

---

(١) ديوان العقاد جـ ٤ الطبعة الأولى ص ٣٣٢ .

قضى الحبيب الذي صنت الوداد له | وفارقته حياة الصون والصَّيَد[1]
فاذرف عليه دموعاً بت تذخرها | واحث التراب عليه آخر الأبد
ما بالكثير على خلٍ حملت له | حسن المظنة يوماً ، دمعة الكمد
وما حيــاؤك من دمع تجود به | على ضريح مضى بالحب والرغد ؟

يروي الشاعر محمـد طاهر الجبلاوي أن صاحبه العقاد في تلك الفترة خطر له أن يغير مجرى الأمور ويذهب إلى التسرية عن نفسه بأنواع التسلية فاشترى « جرامفون » وكانا يجلسان إليه هو والجبلاوي يستمعان لأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وسيد درويش ومنيرة المهدية وغيرهم .

فوجد العقاد في الموسيقى بعض الراحة ولكنه حيـــنما وضع اسطوانة أحد مطربي لبنان وسمع مطلعها الذي يقول فيه المطرب :

نار الغرام لم تنطفي | ولا المحبـة بتختفي

بكى على مرأى من صديقه وقام فأغلق الجرامفون بشدة نتج عنها أن انكسرت تلك الاسطوانة وترك الجرامفون بضعة أعوام لا يقربه .

ويسدل الستار على قصة هــذا الحب عندما يشاهد الجبلاوي « أليس » بميدان المحطة بالقاهرة تسير الهوينا ثم تلتقي بضابط برتبة الملازم أول كان يرتدي الملابس الرسمية ويقف أمام سيارة

---

(١) الصيد رفع الرأس تكبراً .

عند باب قطار « كوبري الليمون » . وما إن دنت منه حتى حياها وركبا السيارة معاً وانطلقا عن طريق حدائق القبة .

ويبحث الجبلاوي عن صاحبه لينقل إليه صورة صادقة لما رآه فيجده يركب تراماً فيجري بأقصى سرعته فيقفز فيه سريعاً ويجلس بجواره ثم يقول له : «لقد انتهت مهمتي».. ثم قص عليه ما رأت عيناه منذ لحظات . وينزلان من الترام عند أول محطة ويركبان سيارة أجرة تنطلق بهما إلى حدائق القبة وقصدا متنزهاتها يبحثان عن تلك الخائنة . فأخـذا يتجولان ويتفرسان الوجوه بطريقة تريب كل من رآهما ، وخلال تجوالهما يلتقي بهما اثنان من أصدقاء العقاد مصادفة ، وكانا من ضباط الجيش ، فأسرع إليهما لأنهما تعجبا من حضور العقاد إلى هـذا المـكان . . وكان لبديهة العقاد السريعة فائدة وأية فائدة في مثل هذا الموقف فإذا به يقول للضابطين : إن صديقنا هذا رجل طيب القلب ، ولكنه منكوب في زوجته ، وقد أخبره بعض الناس أنها تغشى هذا المـكان فجئنا نتحرى الأمر .

واهـــتم الضابطان يومذاك وقاما بالبحث والتنقيب مع العقاد وصاحبه .

لم تكن تلك الواقعة التي رواها الجبـــلاوي للعقاد كافية له للوصول إلى اليقين الذي ينشده .

وكانت آخر المراحل في أمر محبوبته إلتقاء النظرين ، وهي تخرج من إحـدى العمارات بشارع عبد العزيز . وكان العقاد يعرف

عن أخبار تلك العمارة الكثير وبذلك ألقى العقاد بتلك الشكوك في لجة اليقين .

وعندئذ استراح العقاد وقضى أيامه وهو فرح مسرور ، ولم يكتب بعد ذلك شعراً في الشك ولا شعراً في الحب والغرام ورثى أيامه مع « أليس » بقوله :

غفر الذنب من بكائي عليك إنني لا أعود ما عشت أبكي
لا يساوي وقد تعلمت منك نسل حوائكن دمعة شك
خير ما في النساء ساعة ضحك

لقد استراح العقاد عندما وجد السلاح الذي استطاع به أن يقلم أظافر ذلك الحب إذ أصبحت « أليس » امرأة كسائر النساء وقد انقشعت عنها خلع الحب التي كانت تغلفها في نظر من يحبها .

يقول الأستاذ محمد طاهر الجبلاوي :

« بلى ! كان ذلك أكبر ما سر العقاد في تلك الليلة بما سمع من بشارة وظلّ سروره هذا أياماً يرشفه ويكرع منه ولا يروى منه بالجرعة والجرعتين » .

ولم ير العقاد محبوبته بعد ذلك الحين إلا مرة واحدة وقد انقضى على فراقها عشر سنوات .

كان العقاد يلقي محاضرة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ومدير الجامعة إلى جواره يناوله أوراق الأسئلة التي يكتبها المستمعون والمستفسرون بعد المحاضرة .

فتناول ورقة غريبة ، نظر فيها فإذا هي بخط يعرفه من بين آلاف الخطوط . . هو خط « أليس » وقد كتبت له في الورقة تلك الكلمة « أنت وحشتنا » فيطبق العقاد عليها بأصابعه ولا يعقب على ما جاء فيها وكل الذي فعله أنه تناول ورقة أخرى ليجيب على السؤال الذي تضمنته من أحد الحاضرين . وكأن شيئاً لم يكن .

كان العقاد يعتقد أن حب تلط الفتاة اللبنانية هو حبه الأخير ، وظن أن قلبه أغلق إلى الأبد بعد تجربة الشك التي كادت أن تقضي عليه وجعلته يقول مرة لصديقه الجبلاوي بينما هما يسيران في أحد الشوارع الرئيسية بالقاهرة :

« إن الناس الذين يشيرون لي بأصابعهم لا يعلمون أنني من أشقى الناس وأتعسهم » .

ورغم هذا كله فقد عاش العقاد بعد تلك القطيعة يصارع كيوبيد ذلك الشيطان المريد . فقد كان ذلك الشيطان يراوده من حين إلى حين . وكان يسمعه يهجس له ويوسوس في صدره ليسلبه ارتياحه إلى فراق « أليس » وقدرته على تناسيها ، فكان لا يفتأ يعاوده أبداً بهذا السؤال :

« أليس من الجائز أنها وفت لك في أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك إياها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق ؟!

هَدِيَّة الكَرَوان

لم يكد العقاد ينتهي من حبه « لسارة » حتى وجد نفسه أمام حب من نوع جديد . . حب يجمع بين القداسة والطهر . ويقول صديقه الجبلاوي « إن هـذا الحب قد عمر حقبة من الزمن لم تدنسه خيانة ولم يمسسه شر وإن لم يخل من الوساوس التي لا تفارق قلوب المحبين على القرب والبعد »(١) .

وقد عبر العقاد نفسه عن هذا الحب الجديد شعراً فقال :

أنا ساهر والليل دامس ... ويل المحب من الوساوس
ومن الغـد الخافي وما ... من زحفه المأمون حارس
ومن الذي بالأمس كا ... ن وريبه في الصدر هامس
ومن الذي تخفيه تلـك ... العيون السود النواعس

---

(١) من ذكرياتي في صحبة العقاد للأستاذ طاهر الجبلاوي ص ١٩٩

ترنو إليـــك وخلفها في القلب سر عنك خانس
ودع الغياب ومن يجا لس في الغياب ومن يؤانس

ثم يعبر عن تلك الوساوس التي تشغله شياطينها فلا تنجلي إلا عندما تشرق عليه تلك الطلعة التي غابت عنه فيقول :

لا تنـــأ عني إن بي في كل نأي ألف هاجس
هي من شياطين الظلام وأنت مثل الصبح شامس
أشرق عليها ينصرف منها المسالم والمشاكس
لا ضير عندي أن تعيش إذا انجلى ليل الوساوس

ويقول الدكتور عبد الحي دياب أن تلك المحبوبة قد أرسلت إلى العقاد رسالة تصف الكروان الذي يتنقل في أجواء الضاحية فيملؤها طرباً وبهجة ، وفي الوقت نفسه كان العقاد يتلقى وحيه من غناء الكروان ، إذ كان يستمع صدى غنائه من شرفته بمصر الجديدة صباح مساء »[1] .

وقد تكون تلك الرسالة التي تلقاها العقاد من تلك المحبوبة التي كانت تسكن بضاحية عين شمس والتي تصف له فيها الكروان هي

---

(١) المرأة في حياة العقاد للدكتور عبد الحي دياب دار الشعب طبعة أولى ص ١٢١ .

الدافع إليه لتسمية أحد دواوينه الشعرية بهذا الاسم « هدية الكروان » . فقد رد العقاد على رسالة صاحبته بقصيدة عن ذلك الطائر الذي كان واسطة تلك العلاقة العاطفية الجديدة فقال :

ما أحب الكروان !

هل سمعت الكروان !؟

موعدي يا صاحبي يوم افترقنا حيث كانت جيرة أو حيث كنا

هاتف يهتف بالأسماع وهنا هو ذاك الكروان . . . . .

هو هذا الكروان

الكراوين كثير أو قليل عندنا أو عندكم بين النخيل

ثم صوت عابر كل سبيل هو صوت الكروان . . . .

في سبيل الكروان

لي صدى منه فلا تنسي صداك هو شاديك بلا ريب هناك

فإذا عسعس الليل دعاك ذاك داعي الكروان . . . .

هل أجبت الكروان

مغرد لكنه يؤنسنا ساهر لكنه ينعسنا

صدحت في نفسه أنفسنا فتسامعنا سواء . . . .

وسمعنا الكروان (١)

---

(١) « هدية الكروان » ديوان شعر للعقاد ص ٢٧ — ٢٨ .

ويؤكد العقاد أن تلك المحبوبة هي صاحبة الفضل في اختياره هذا الاسم « هدية الكروان » لتلك المجموعة من شعره فيقول :

هتفات الكروان بالليل تترى ومعـــاني الربيـع نوراً وعطرا
وجمال الحياة حبـــا وحسنا وشباباً يفيض عطفاً وبشرا
بت أصغي لها ، وأقيس منها ثم ترجمتها لمن شاء شعرا

وقد صور العقاد في ذلك الديوان كيف خفق قلبه لذلك الحب الجديد وكيف طالب ذلك القلب أن يسمعه الصدى . . صدى صوت تلك المحبوبة . . وكيف كان قلبه ينكر عليه ذلك الشعور ويراوغه في الاعتراف . رغم أنه ـ أي ذلك القلب ـ كان يشده إلى زيارة « عين شمس » ليرى تلك المحبوبة فيقول :

خفقات تلك من وزن جديد أيها القلب ! فأسمعني صداك
ذلك الوجه ، وما العهد بعيد ! أنت تهواه . فلا تنكر هواك

* * *

أنت تهواه وتسعى بي هنـــا كل يوم بعـــد يوم كي تراه
لا تراوغني وقـل هيا بنا في صريـح القول ، نستجلي سناه

* * *

تحسب الرقـة فيه ألمـــا فإذا أنت من الوجد تذوب
لا يكون الحب إلا هكذا أنا لا أجهل أسرار القلوب

* * *

كاصفرار الشمس في ثوب الغروب واصفرار العاج في ثوب القدم
ذلك اللون نسميه الشحوب وهو في الحسن شفيع للسقم

* * *

رحمة للقلب من ذاك الوجيه صيغ من ذوبي حنان وحنين
كلما رفرفت بالعين عليه شبه الفرحان عندي بالحزين

* * *

إن أشا قلت خيال في الكرى أو أشا قلت عيان لا خيال
جمع الأمران لي فيما أرى حين صح الحلم في خير مثال

لقد كانت تلك الفترة من حب العقاد من أحلك فترات مصر السياسية وهي التي تولى الحكم فيها إسماعيل صدقي الذي استبد استبداداً أضر بالحريات فكان سبباً في دخول أكثر من حامل قلم إلى السجن حينما عصف بدستور ١٩٢٣ وألغاه . وكان العقاد من أولئك الذين عرفوا السجن في فترة حكم ذلك الطاغية .

وقد وصف المازني في كتاب الديوان تلك الفترة بقوله :

« إننا نعيش في عصر تفكير عميق وعهد قلق عظيم واضطراب كبير وشك مخيف ، عصر تعتصر فيه العقول ويستنفد في حيرته مجهود القلب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية ، وصارت حياتنا محيطاً زاخراً بالعباب يضطرب بنا متنه

في عش ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ إلى المعرفة ، والحنين إلى النور » .

فلم يكن من الغريب أن يعيش العقاد خلال هذه الفترة الحالكة محباً عاشقاً إذ أن الحب في مثل تلك الظروف هو الطريق الوحيد للتغلب على أثقال الشك والحيرة والضياع التي شملت شباب العصر كله في تلك الفترة ، بل ورآه العقاد نفسه جواز الدخول إلى الحياة التي يتوق إليها المفكر الفنان . إذ أنه بدونه يعيش حول أسوار تلك الحياة ويحوم حولها ولا يلج بابها ، وفي ذلك يقول شعراً :

قالت : جوازك ؟ قلت هاك ... حب أنال بـــه رضاك
فدخلت في خـــدر الحيا ... ة وراء ألفـــاف الشباك
أبرز جـــوازك نقتسم ... دار الحيـــاة على اشتراك
أو لا فأنت ببـــابهـــا ... أبـدآ تحـــوم بلا فـكاك

لقد كان اللقاء العارض بين العقاد وفتاة ضاحية عين شمس عقب تجربته الأليمة مع « سارة » من ذلك النوع الذي لا تذهب مزاياه بذهاب مزية العمر ، ولولا أن هناك سراً في روح تلك المحبوبة لما رتب القدر ذلك اللقاء ، وفي ذلك يقول العقاد مخاطباً ذلك اليوم :

يا يوم أول لقيا بيننا عرضت ... ثم انطوى عهدها حتى بعثناه
نعم بعثناه في حب إذا ذهبت ... مزية العمر لم تذهب مزاياه
مبارك يوم عيد في عواقبه ... لم يسه عنا وما كنا لننساه

لما بحثنا لنلقـــاه ونذكره إذا به باحثـاً عنا لنلقاه
سر من الله في روحين ما برحا من قبل لقياهما يرعاهما الله

بل ويتألق العقاد المحب الوامق في وصف نظرته لعيـون تلك المحبوبة فيرى أنها مشوقة إليه كما هو مشوق إليها ، وأن تلك النظرة عنده من أحلى الأحلام فيقول :

نظرات العين في العين جمعت أشواق نفسين
تلك أحـلى ما حلمت به من نعـــيم في الحياتين

ومع الأيام ملأت تلك السيدة حياة العقاد بهجة ورضاء . . وأخذت تحتل من قلبه الكبير ذلك المكان الذي كانت تتربع عليه « سارة » . لقد استطاعت تلك السيدة أن تخرج العقاد من حياته التي عاد إليها بمجرد قطيعته « لسارة » . ونعني بها ـ حياة الكتب والورق ـ فبدأ يعرف السهر ومناجاة الحبيب الجديد .

وفجأة سافرت تلك المحبوبة إلى الصعيد في زيارة لبعض أهلها وكانت خلال غيابها تراسل العقاد فكان ينتظر ساعي البريد الذي كان يحمل رسائلها ويتمنى لو كان لا يحمل إلا رسالتها المنتظرة . ولكن أنى يكون ذلك وهو مكلف بتنسيق الرسائل وتوزيعها على أصحابها وهو في الطريق من مكتب البريد حتى بيت العقاد المنتظر المتلهف شأن المحبين جميعاً وفي ذلك يقول شعراً :

ما ذلك التنسيق والجمـــع والتفريق
والقفـــز والتعويق يا ساعي البريد ؟

* * *

كسوتك الصفراء والخطوة العرجاء
يمشي بهـــا الرجاء يا محنـــة الجليـــد

لقد غدا الزمن يحسب في ميزان العقاد المحب بحضور الساعي الذي يحمل رسائل تلك المحبوبة فينتظره دون سواه ، بل لقد جـدد ذلك الساعي صبر العقاد عن انتظاره القطار القادم يحمل المحبوبة إلى القاهرة ثانية . وفي ذلك يقول :

جددت لي انتظاري وقلة اصطـــباري
عن طلعة القطار وطلعة النضيـــد

* * *

أكرم به من ثمر منتظر مـــدخر
في كل يوم مزهر مبـــتدىء معيـــد

بل لقد رأى العقاد في ساعي البريد إلى جانب ذلك أنه كالقدر الذي يحمل للناس ما يحزنهم وما يسرهم على حد سواء ويتم منه هـذا وذلك في لمحة عين ، لذلك يطالبه العقـــاد أن يكون فيما يحمله له الخبر السعيد دون غيره فيقول :

في لحـــة تنتشر منك المنى والعـــبر
وأنت ماض تعـبر كالكوكب البعيـــد

* * *

كن أبداً مريدي بالخـــبر الســـعيد
وبابتسام العــــيد يا ســـاعي البريد

وتصل إلى العقـاد رسالة المحبوبة التي تقول له فيها إنها عائدة إليه وتصل القاهرة فتغـــدو مهمة الساعي لديه لا قيمة لها . بل لا يريده أن يظهر له في الطريق فيقول :

عجب « الساعي » الذي كنت له أبداً في شـــرفتي منتظرا
إن من تحضر لي أخبـــاره أيها الساعي بخير . حضرا
إبق إن شئت وطاباً حافلاً لا أبالي لحظة إن صفرا
الطريق الآن لا أرقبه لأرى وجهك ، لكن لأرى
ولك الشكر ، ولي العذر ، فلا تظهر الآن . فها قد ظهرا
لا تذكرني نواه بعـد ما كنت تروي عنه ذكراً عطرا

وتزوره المحبوبة بعـــد عودتها في بيته ويسهران طوال الليل ويتناجيان حتى يودعا الليل ويشدو الكروان ويخف الصبح رويداً رويداً كأنه الطارق الخائف المرتعد . وتكون قبلته لمحبوبته علامة الفراق حتى يلتقيا مرة أخرى فيقول :

ومشى الصبـح على مهل كمن يطرق الدار على غير أمان

وتلمست هنـــا تغريدة في فمي تصدح في هذا الأوان
قبلة منك هي الفجر ، وفي طيها تبـــدو ثناياه الحسان
عن شـــمالي كلما ولى دجى وسرى فجر ، وحنت شفتان
وتراءت نظــــرة ناعسة عند أخرى ، فتلاقت نظرتان

وتدعوه محبوبته لزيارة عين شمس .. وهناك يقضيان وقتـــاً سعيداً بين أشجار الرمان والكمثرى بحديقة منزلها . . وتقوم تلك المحبوبة فتجني بنفسها وبيديها لحبيبها بعضاً من الرمان والكمثرى وتنجرح يدها خلال عملية الجني فيغازلها العقاد قائلاً :

أمن القلوب حسبتها فعلوتها قطعـــاً وبترا
لا تشك من عدل الجزا ء إذا أصابت منك ثأرا
جرحتك حـين جنيتها فاعرف لها ذنبـــاً وعذرا

ثم يأكل من تلك الثمار التي قدمتها له حبيبته لا سيما الكمثرى الذي أكلها كلها حتى القشر الذي يغلفها وتأكل معه محبوبته فيقول :

آليت لا لباً تركت ولا تركت عليك قشرا
خذ هذه ؟ خذ تلك ؟ هات اللب ، هات القشر مرا
أتعضه شوقا إليه ومهجـــتي بالشوق حرى
لا غرو تستحلي المذاق فأنت بالحلواء أدرى ؟

* * *

نعم الثمار أحبها نظماً كما أنفقت ونثرا
أهديتها من ريا ضك، أنت يا روضتي، فشكرا
فاضت على قلبي هوى وجرت على شفتي شعرا

كانت هذه الحبيبة من النوع المعتدل الذي يعطي بقدر على خلاف تلك المحبوبة ونعني بها « سارة » . وما إن ظهر في حياة العقاد حب جديد من إنسانة جديدة حتى نراه يودع حبه لفتاة عين شمس وهو يعدها بأنه سيذكر أيامه معها وسيكون وفياً لتلك الذكريات فيقول :

نم قرير العين والنفس فما لك في قلبي سوى الحب الطهور
أنا إن لم أكرم الصاحب في غيبة ، إني إذن جد كفور

* * *

نم قرير العين والخاطر يا أكرم الأحباب في الدنيا الغرور
لا تخف في الغد شراً من أخ ودّ لو ينجيك من ماضي الشرور
في أمان أنت منّي وأنا في أمان منك والدهر يدور

ورغم أن العقاد ودع ذلك الحب إلا أنه كان يحس بما قاسته تلك المحبوبة منه فحاول ألا يحزنها بسبب تلك المقاساة ويعترف بأن هواه لها كثيراً ما جار عليها على حين أن هواها هي كان رحيماً به وفي ذلك يقول :

أنا أدرى بك من نفسك يا   طاهر النية في كل الأمور
إنمـــا تخطىء من حب إذا   أخطأ الإنسان من غش وزور
ويح قلبي أنا إن أحزنت من   هو في الحب على الحزن صبور
كم قسا مني وكم جار الهوى   والهوى منك رحيم لا يجور
لك من عطف شفيـع دائم   وشفيعي عندك الوجد الثئور



السَّمراء الفاتِنَة

ودع العــقاد حبه لفتاة أحلامه التي كانت تعيش بضاحية عين شمس على مقربة من مصر الجديدة حيث عاش الـكاتب الكبير حتى أخريات أيامه في الحياة الدنيا . . ودعه وهو يعتقد أنه سوف لا يعرف تلك المرارة التي كان يسببها له عالم المرأة ممثلاً في بعض من بنات حواء . ولكن كيوبيد شيطان مريد فلم يشأ أن يتركه بعيداً عن حوّاء وعن العلاقة معها . . .

فقد شاء أن يعلق قلبه بحب فتاة سمراء دعجاء العينين كانت في العشرين من عمرها وكان هو قد جاوز الخمسين بقليل .

كانت أحداث تلك العلاقة في عام ١٩٣٩ . وهو العام الذي شُغلت الدنيا فيه بحرب طاحنة . وقد سجل العقاد قصة هذا الحب في ديوانه « أعاصير مغرب » الذي يدل اسمه على موضوعه .. ألم يكن مثل هذا

الحب بالنسبة لرجل في سنه أشبه بالأعاصير التي تهب على مغرب حياة الإنسان ! ؟

لذلك نراه يخاطب كيوبيد اللعين الذي بدأ يتسلل إلى نفسه بعد أن ودعها من زمن ليس بالقليل :

نفض النعاس فؤاده وصبا ... وصحا ، فمال ، فهام ، فاضربا
ونفى السآمة بعد ما بلغت ... منه المشاش وعـــاود اللعبا
وجرى الذي ما كان يحسبه ... يوماً يكون ، وطالما حسبا
في توبة الخمسين يشـــغله ... وجه ، ويمـــلأ صدره رعبا
ويظل يسأله ، وإن وهبا ... ويبيت يسمعه ، وإن كذبا
ويعـــد منه الزور مأثرة ... أو لا يريد بزوره سببا ؟ !

ثم يخاطب تلك الفتاة الهيفاء الممشوقة القوام والتي جاوزت العشرين من العمر فيقول :

هـــذا الصغير على غرارته ... يدري النفـــاق ويحسن الأدبا
وتراه في العشرين مستبقاً ... وتراه في الخمسين مصطحبا
ويغيـــظ في كيد وعربدة ... فإذا أغيظ شكا أو انتحبا
متمرساً بالدهـــر مختبراً ... خـــيم القلوب مجاوزاً دربا
سأضمه رفقـــاً ، وأوسعه ... براً ، وأملك قلبه حدبا
ويقـــيم لا أخشى كنانته ... السهم أخطأ والحسام نبا



لقد كان هذا الحب في نظر العقـاد من عجائب الحياة لا سيما وأن الليالي قد أطفأت منه شعلة بعد شعلة . فليس من المتصور ـ والحال هذه ـ أن يومض النور نور الحب في ذلك القلب . والمتتبـع لشعر العقاد يجده قد عاب على شاعر الألمان الكبير « جيته » حبه في سن الشيخوخة فقال له :

يا صديقي القديم « جيتي » اعتذاراً   لك من سـوء ظنتي وملامي
كنتُ أنعى عليك حبك في الستين بنت العشرين ، فاغفر ملامي

وها هو بعد أن عاش هذا النوع من الحب يقول :

عجباً والدهر لا يفني أعاجيب الحياة
مفرق شاب يشب الحياة في قلب فتاة
شرك صاد ـ ولم أنصبه صيّاد البزاة
وقديماً كان إن دا ر على الصيد نصل

* * *

أطفأت مني الليـالي   شـعلا بعـد شعل
من غواياتي وأحـلا   مي ومن برق الأمل
قلما يومض فيها النور   من نـار القبـل
عجبا ، لكنه وهو   عجيب « قد حصل »

ويغدو هذا الحب عن العقاد غير مصدق لذلك يقول إن إنسانا آخر لو جاءه ليقول له ذلك لما صدقه فيقول :

لو لسان قاله لي ... لم أصدق ما يقول
غير أن الشوق في خد ... يك يسري ويجول
مزهراً بعد ذبول ... مشرقاً بعد أفول
قسم فـاه به قلبـك ، بل وحي نزل

لقد أتى هذا الوحي إلى العقاد ونزل عليه وهو كافر بالناس شاك فيهم جميعاً فيقول :

أحوج الوحي إلى ... معجزة وحي عجاب
عند قلب كافر بالنا ... س يغلو في ارتياب
يا رسـول الحب آمنت ، وفي كفي الكتاب
طفلة تهفو إلى الشيب ؟ أجـل ثم أجـل !

وتلمّـح له السمراء بحبها له . ولكنه لا يثق فيه لما بين عمريهما من سنين ، ثم يصبـح التلميـح منها بعد ذلك تصريحاً فيعرفه الناس ويحدث اللقاء فيقول :

حين لّمحت تغابيد ... ت ، ولي والله عـذر
وانثنى التلميح كالتص ... ريـح والشك مصر

ثم طاش السر حتى كاد يسعى . وهو جهر
وتلاقينا فمـــاذا كا ن ؟ بركانٌ جفل

ويصف العقاد هذه السمراء بأن عباقرة الزمان قد أسرفوا في طهيها وقدموها له على مائدة الحب فلا يرضى لها بعد ذلك الهوان فيقول :

مائدة أسرف في طهيها عشرين عاماً عبقري الزمان
أكرمنا الطاهي بهـا ساعة فكيف بالمكرم يلقى الهوان
حسن وأنس وحياء معـــا وطلعة الصدر ونفح الحنان
مدت لنـــا طوعا فما عذرنا إذا تركنا لقمة في الخوان

لقد غدت أيام العقاد خلال حبه للسمراء كلها ربيعا مزهراً مليئاً بالقبل التي أشبعت هذا الحب الرضيـع فيقول :

شـــد ما غذته في نشأته قبلات تشبـع الحب الرضيع
سنة كانت ربيعـــاً كلها بين روض يتغنى ويضوع

ورغم أن للعقاد تجارب حب سابقة مع نساء أخريات إلا أن حبه هذا للسمراء الجميلة حب من نوع جديد فيقول :

هو حب واحـــد لكنه شائع كالنور من حيث يشيـع
لم يكرر قط في ترداده كل ترداد له خلق بديـع
فإذا عشت له عشت به في بواكير من العيش الينيـع

لقد كان هذا الحب بالنسبة للعقاد مثل عودة الربيع في يوم خريف لأن حب الشيخوخة أعمق من حب الشباب ، ولأن أقصى أماني النفس هي الأشياء التي يعز رجوعها إلى عالم الواقع الملموس فيقول :

من جديد المتاع يوم خريف ... تحت وهج السماء عاد ربيعا
ومحيا في الأربعين وديع ... تحت بث الغرام شب سريعا
نضح القلب بالجمال فسوى ... من ثنايا الغصون وجهاً بديعا
ذاك أحلى من الشباب شبابا ... ومنى النفس ما يعز رجوعا

ورغم أن العقاد قد عاش هذا الحب راضياً ورأى أن حبيبته تريد قلبه إلا أنه كان يخاف من ذلك ويرجوها أن تدعه لأنه سوف يرى محياها فيه عندما تغيب عنه هذا من ناحية ، أما الأخرى فإنها قد لا تحافظ على هذا القلب لصغر سنها فيقع منها كما تقع اللعبة من يد الصغير فتنكسر إلى قطع صغيرة لا يمكن أن تعود لحالتها الأصلية ثانية فيقول مخاطباً إياها :

تريدين قلبي خذيه خذيه ... رويدك ! لا بل دعيه دعيه
دعيه إذا غبت عني أرى ... محيـــاك فيه ، وحبي فيه
وسر أبوح بـــه خلسة ... وإن كنت من قبل لم تسمعيه
فكم لعبة وقعت من يديك ... وقوعاً أرى القلب لا يشتهيه
إذا ما لعبت به ها هنا ... فإني لآمن أن تكسريه

لقد استعاد العقاد بحب السمراء حياته الأولى ، وحل بقلبه التفاؤل بعد أن كاد التشاؤم يسيطر عليه ، وشرب من ذلك الفم الغض الرقيق أفاويق الشباب وغدا لا يذكر « سارة أو فتاة عين شمس » إلا كما يذكر الأقاصيص . ويصور العقاد تلك الحالة التي اعترته نتيجة لذلك الحب فيقول :

بنية ما صنعت ؟ جزاك ربي   بحب في مشيبك مثــل حبي
لقــد غيرتني حـتى لو اني   أرى قلبي إذن لجهلت قلبي

* * *

سليني كيف كنت وكيف صرت   وقولي ما صنعت وما صنعت
قدرت على الحوادث بعد لأي   وها أنا ذا كأني مـــا قدرت

* * *

وكانت لي ســــلالم أرتقيها   فرادى لا أبالي ما يليهـــا
فعدت مثنيـــاً عجلا كأني   أخو العشرين مرتقيـــاً سنيها

لقد كانت السمراء أنثى بكل ما تحمل الكلمة من معاني الرقة والعذوبة والجاذبية الطاغية . تتهاوى طراوة وتذوب من فرط نعومة ، وقد وصفها العقاد قائلاً :

ثناياها . ثناياهـــا   وهل ذقت ثناياها ؟
وعيناها ، ويا للقلب !   كم تسبيه عيــناها ؟ !

* * *

وتـــلك الوجنة الخمر يّة السكران رائيهـــا
أفي الجنـــة يا رضوا ن تفـــاح يحاكيها ؟ !

* * *

وتلك القـــامة الهيفا ء زانتهـــا زواياها
إذا ما جار ردفاها أقام الجور نهـــداها

* * *

وتلك النسمة الحـــلو ة في ثوب الأناســـيّ
هي الروح الفراشية في النـــور الســـماوي !

ويقبل العقاد من السمراء ما لم يقبله من أي امرأة عرفها في حياته ، حتى خلف المواعيد الذي يمقته أصبح إذا صدر منها مقبولاً وفي ذلك يقول لها :

إن كان خلفك للوعود تدللاً بمكانك الغـالي لدي فأخلفي

وتزوره السمراء في أحد الأعياد في بيته وتهديه زهرة فينظم قصيدة يسميها « عمر زهرة » :

فريدة في روضها أخيرة في الموســـم
عيشي وأهدي غيرها في كل عيد ، واسلمي
ألست أنت مثلهـــا علمت أو لم تعـــلمي
هدية الخـــلاق لي وقد رأى تنسمي ؟

وتصنع له تلك المحبوبة السمراء « بلوفر » على يديها وتهديه له فيقول لها :

هنا مكان صدارك هنا هنا في جوارك

* * *

هنا هنا عند قلبي يــكاد يلمس حبي
وفيه منك دليـــل على المودة حســـبي

* * *

ألم أنل منك فكرة في كل شــكة إبرة
وكل عقــدة خيطٍ وكل جرة بكرة !

* * *

هنا مكان صدارك هنا هنا في جوارك
والقلب فيه أســير مطوَّق بحصارك !

* * *

هــذا الصدار رقيب على الفــؤاد قريب
سليه هــل مر منه إلى طيف غريب ؟

* * *

نســجته بيــديك على هــدى ناظريك
إذا ما احتواني فإني ما زلت في إصبعيك

ويأتي على حبها عام جديد فينظم العقاد قصيدته مهنئاً نفسه بمرور عام على حبه الجديد فيقول :

تقويم هذا العام من   لحظاته الأولى لديك
قومي ارفعيه وارفعي   عنــه الغطاء براحتيك
من يوم مطلعه إلى   رجعاه موقوف عليك

* * *

وإذا انتهت أيامــه   ولكل عـام منتهاه
فعليك أنت وداعه   وترحبين بمـا تلاه
ويحي إذا دار المدى   ورعيت وحدي ملتقاه

* * *

هي قبلة ضمت عُرى   عامين فاتصلا اتصالا
ومنى الخواطر في غد   عام كسابقه مــآلا
لا نعجلن به فمــا   أقسى الحياة على العجالى

* * *

لا . لا . فهذا يومنا   وغد ، وبعد غد، خفاء
أنا مغمض عيــني ومستمع إلى حادي الرجاء
فإذا سمعت حداءه   فدعيه يمضي حيث شاء

ثم يمر العام الثاني على ذلك الحب فينظم قصيدة أخرى جعل عنوانها « عام ثان » :

بشراك ما أنا شاهد يا عام وحدي ملتقاك
دارت بروحك والهوى يخطو وتتبعه خطاك
وحمدت وجهك مقبلاً ومضى ، فلم أذمم قفاك

* * *

هذي فتاتي هـذه ! هي لا خلاف ولا اشتباه
هي في بديع قوامها هي في الصبا،هي في حلاه
هي في غوايتها وآ هٍ من غوايتها وآه

* * *

ضمي ثغيرك يا بنية وابعثي منه الأمل
لا بالعهود إلى مدى عام ، ولكن بالقبل
إن ساعفتني ليلة فدعي العهود إلى أجل

* * *

عام تفتح بالرجا ء وبالرجاء ختمته
ودعت ذاك العام في قربي كما استقبلته
قولي ، وقد ولى ، أفي شرع الوفاء قضيته ؟

* * *

لا تخدعيني يا بنية بالوفاء من اللسان
خنّا وخنت ولا أقول سلي فلانة أو فلان
ذهبت خيانتنا معاً والآن نحن الباقيان

* * *

ذهبت خيانتنـــا كما ذهب الوفاء ومن يفون
لا ذمــة تبقى ولا يبقى الوفيّ ولا الخؤون
كم ذمـــة ضيعتهـــا يا عام في تلك الغضون !

* * *

أنظر ألست ترى فتا تي حيث كنت ضممتها
في جلسة الأمس التي حتى الصباح جلستها
فكأنها مـــا فارقت صـــــدري ولا فارقتها

* * *

ما كنت عندي أيهذا العام كلك بالســعيد
لكن سويعات مضت لي فيك تنسي ألف عيد
غفرت ذنوبك كلها وطغت على العام الجديد

* * *

حسبي من الدنيا الذي أعطت ودنيانا غرور
حسبي قليــل عطائها وقليلها أبداً كثير
إن عاد يوم غد كأمس فــدر زمان كما تدور

ثم يجد العقاد نفسه على أهبة السفر إلى السودان على غير انتظار ففي سنة ١٩٤٢ بدأ العالم يغلي من جراء حروب هتلر وموسيليني وكانت جيوشهما بقيادة رومل تكتسح جيوش الحلفاء في شمالي افريقيا في سرعة مذهلة حتى تقف عند العلمين فيعم الذعر والقلق ولما كان العقاد كان من الرعيل الأول الذي هاجم هتلر على صفحات

صحف مصر السياسية وفي إذاعتها فإن سفره للسودان وجنود عدوه الأول هتلر على حدود مصر أمر لا يستغرب ولا بد منه ، فسافر مهاجراً إلى السودان حتى تهدأ نيران الحرب وترك وراءه حبه للسمراء وتركها بالقاهرة ، ومكث هناك بضعة أسابيع عاد بعدها للقاهرة والتقى بمحبوبته وفي ذلك يقول :

عدنا وعاد بنا الهوى في ملتقانا كل عام
دارت حوالينا كوا كبه ، وطاب لنا المقام
حب يدوم ، وعالم أبداً يدور على الدوام

* * *

من كان يحسب،والهوى يخطو لأول عامه ،
أنّا سنتبع رابعاً منه ليوم تمامه
آمنت بالعهد الذي يطوي المدى بدوامه

* * *

راضين نمضي في الحيا ة ، وتارة متغضبينا
وعلى كلا الحالين نمضي بالعواقب واثقينا
متشوقين إلى اللقا ء وإن كتمنا الشوق حينا

* * *

كم من شموس عاود تنا طالعات راجعات
ألف ، وفوق الألف ما شاء الحساب من المئات
مهما اختلفن فحبنا نور يضيء مدى الحياة

وللعقاد قصيدة أخرى ضمنها ديوانه « أعاصير مغرب » أيضاً قالها بعد أن عاد من رحلته للسودان والتقى بتلك المحبوبة السمراء رأينا أن نذكرها في هذا الصدد ، يقول العقاد :

التقينا
والتقينا !
عجباً كيف صحونا ذات يوم فالتقينا
بعد ما فرق قطران وجيشان يدينا
فتصافحنا بجسمينا وعدنا فالتقينا

* * *

بعد عصر !
أي عصر ؟
والنوى تجري وسر الحب في الأكوان يجري
ثم نادانا تعالوا فاهبطوها أرض مصر
قضي الأمر كما شاء ، وعدنا فالتقينا

* * *

وتدانى
وكلانا
زائغ الطرف يناجي الأفق قلباً ولسانا
ثم ماذا ؟ ثم كن يا بعد لي قربا ، فكانا
واستعان الحب بالداء حليفاً فالتقينا

* * *

كم غرام
وسـقام
عرفا الحلف على غير سلام ووئام
فإذا ما اجتمعا فانتزعاني من مقامي
فبحسبي منهما أنا شكونا فالتقينا

* * *

يا فتاتي
يا حياتي
لا تراعي بعد هذا من فراق أو فوات
قدر الله كفيل لك في ماض وآت
كلما فرق شملينا دعانا فالتقينا

* * *

وفجأة يكتشف العقاد أن سمراءه لم تكن وفية لحبه . فما كان منه إلا أن قال فيها :

هيا اسأليني واسمعي   مني الجواب بلا مراء
أوفيت لي ؟ كلا ولكني وفيت لك الجزاء
وكذاك أنت وإن حلفت . . وآه من حلف النساء

ويقول أيضاً :

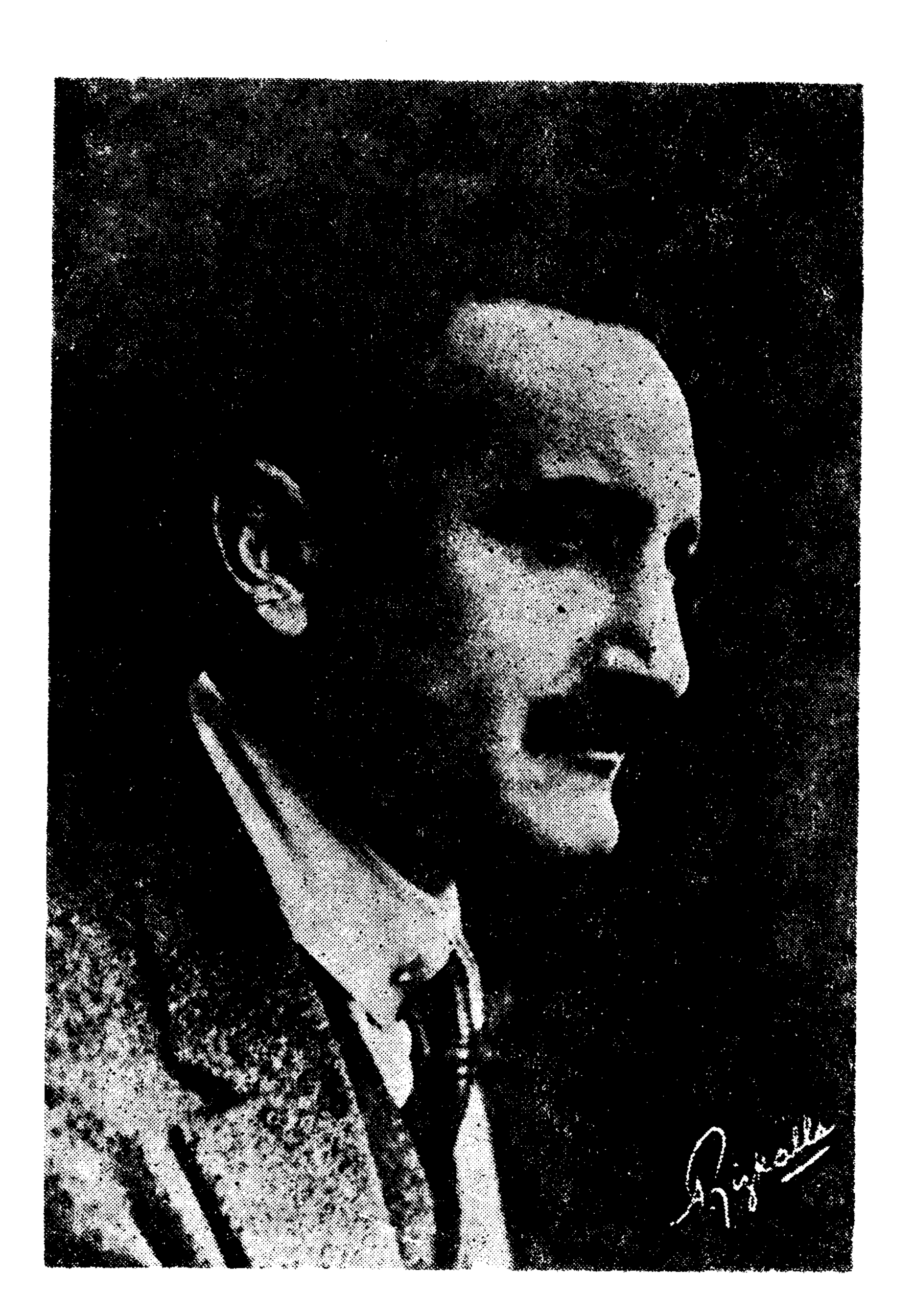
ما باختيار كان إشراكي ، وقد وحدت دهرا
لكن ليرضيني القصاص فلا أسوم الحبَّ هجرا
نصف الوفاء مع اللقاء أحب من هجر وذكرى

لم يعد الحب بين العقـاد والسمراء خالصاً ، بل أصبح يشتمل على صداقة وعداء ممزوجين لمن يشاء منهما وإن كان لا يخلو من عطاء واغتصاب . يقول العقاد :

ما الحب من محض الصدا قة يا بني ، ولا العداء
الحب فيـه الخصلتا ن ، وفيه مزجهما سواء
فيه العطاء والاغتصا ب وقل على الدنيا العفاء !

وصف الأستاذ أنيس منصور تلك الفترة من حياة العقاد بقوله :

« كان يستكثر على قلبه العجوز أن يحب من جديد . . أن يخفق بعنف وأن يجعله يقف وراء الباب ينتظر السمراء وهي تصعد السلالم واحدة واحدة وعطرها الرخيص يسبقها إلى أنفه . . وقبل أن ينفتح التاكسي أمام بيته ، وقبل أن يرتد باب التاكسي مرة أخرى يكون العقـاد قد فتح باب شقته وأقفله للمرة العشرين . . ويكون العقاد قد أطل من البلكونة عشرين مرة . . ثم يخف العقاد



ابن الخمسين وينزل إليها السلالم ويأخذ بيدها .. أو يأخذها كلها بين أصابعه .. ويصعد بها أو تصعد به »[1]

وقد عثرنا بين أوراق العقاد الخاصة على رسائل وصور لتلك السمراء الفاتنة ولكننا لا نستطيع أن ننشر إحداها في هـذا الكتاب لأسباب منها أن هذه السمراء التي تعيش اليوم على الشاشة المصرية باسم سينمائي زوجة وأماً ولا نحسب أن من حقنـا أن نميط اللثام عن شخصيتها ، ولكن من حق التاريخ عليهـا أن تميط هي هذا اللثام عن قصتها مع العقاد يوماً ما .. وكل ما وراء هذا اللثام من رسائل وقصائد وحكايات .

إن قصة تلك السمراء الممشوقة القوام مع العقاد جزء من تاريخه ، وتاريخ العقاد جزء من الأدب في هذا الجيل .

وقد عمر هذا الحب بضع سنوات وكانت السمراء تعتز به وتحاول له البقاء لولا أن صاحبها ممن لا يقبلون المشاركة في هواهم ولها عذرهـا في ذلك ، لأن طبيعتها وطبيعة حياتهـا كانت لا تقبل الانفراد الذي يطلبه وافترقا على الرغم منهما وترك ذلك الفراق في نفس العقـاد وفي قلبه نقطة سوداء .

---

(١) يسقط الحائط الرابع للأستاذ أنيس منصور صفحة ١٧٤ .

ويروي الأستاذ الجبلاوي في كتابه في صحبة العقاد : « .. وكان العقاد يذكر لي وقع هـذا الفراق الذي رضيه كارهاً فيقول لي : ما ظنك برجل يحس يده وقد قطعت وفصلت عن جسمه وهو يراها بعينه بعيدة عنه ، ورغم المحاولات العديدة التي حاولتها تلك السمراء لتظل في قلب العقاد إلا أنها لم تستطع لأنه اعتصم بعقله واحتمى في كرامته فرفضها ورفض حبها .. إنها لا تعرف ما الذي فعله عبثها بقلب العقاد لأنها أصغر من أن تعرف ماذا أصاب العقل الكبير والقلب الرقيق والعملاق المتكبر . وفضل العقاد أن يخرج من هـذه التجربة كسير القلب مرفوع الكرامة ، ورغم أنها أعادت الكرة مرات ومرات تحاول أن تقنعه أن عملها كنجمة سينمائية يقتضيها أن تلتقي بالناس وتتجه إلى رجال آخرين ، لكن العقاد لم يقبل المشاركة في الحب لأنه مسألة شخصية ولا يمكن أن يكون واحداً ضمن عشرات الناس الذين يحبونها أو تحبهم . وأصر على أن يرفضها سواء أكان هناك رجال آخرون في حياتها أم ظلال لرجال . ونراه يصور ذلك بقولـه :

هونت خطبك جدا — وخلتـــه لن يهونا
بدلت بالنـار بردا — وبالهيـام سكونـا
إني أمنت الفتونـا
وأنت مـاذا أمنت
قـد هنت والله هنت



خذي عشيقين مثلي   لا بل خذي الناس طرا
يلقاك هذا بليل   فذاك يلقاك ظهرا !
أن تخدعي رب نبل   يخدعك نذلان مكرا

وتشربي الجام مرا
حتى يقال جننت
قد هنت والله هنت

ونراه ينظم قصيدة أخرى يسخر فيها من تلك السمراء ومن عملها الذي حاولت أن تبرر من خلاله سلوكها فيقول :

أفي حجرة النوم أم قاعة العـرض جمهور فنك مستحضر ؟
ومن تعرفين أمام الستار   أم خلفه دائماً أكثر !
وهل أنت « نجم » لأن النجو   م في ليلها أبداً تسهر ؟
أمور إذا ما احتواها السؤا   ل فالسائلون بها أخبر
فما تبرزين وما تسترين   بغير شعاع لهم يظهر

ويقف العقاد على قبر ذلك الحب بعد أن يحثوه التراب فيقول :

بنية ، والعزم صخري المتين   ومعولي حد العذاب السنين

اسمع . ألا تسمع هذا الرنين هذا فتات القلب هذا أنين
في كل ركن قطعة من وتين

بنية في حفرة من شقاء والدم والدمع عليه طلاء
هناك في زاوية في الخفاء تم بحمد الله ، تم البناء
ماذا بقي ؟ لم يبق إلا الدفين

آه من الحيرة آه وآه أنا مع قلبي ، رجعي هواه
ولو خلا القبر أهذا مناه ؟ لو أقفر الساعـة مما حواه

ويحاول العقاد أن يقنع قراء ديوانه « أعاصير مغرب » الذي ضمنه شعره في تلك السمراء أنه لم يستغرب تلك النهاية من تلك الفتاة الصغيرة التي لم تعرف قيمة ذلك القلب الكبير فيقول في قصيدة له بعنوان « رواية » :

ما غرني إقناعها كلا ولا إمتاعها
ماذا تخبىء طفلة رقت ورق قناعها
بل غرني علم الطبا ع ، وللنفوس طباعها
أو ليس علماً بالحيا ة يهون فيه صراعها
إني شاهد كيف يفطن في القلوب رضاعها

أو كيف يسري في النفو س الواعيات خداعها
أو كيف ينهض بعد طو ل سباته دفاعها
أو كيف يومض بعدما خفت السراج شعاعها
دعني فتلك رواية شاقت وشاق سماعها
ألمي الوجيز رقاعها إن قيل أين رقاعها ؟
وأنا العليم ، وقد علمت متى يكون وداعها

* * *

لقد خرج العقاد من هذه التجربة العاطفية القاسية بأشياء لا تقل قيمتها عن تلك السمراء التي لفظها قلبه ؛ فقد عرف منها أن المرأة خداعة وأن هذا السلاح هو ما تتستر خلفه في هذه الحياة الدنيا وأنه طلاء الزينة ورياضة لنفس حواء تعيش عليها وهي لا تفرق بهذا الخداع بين من يحبونها أن يعادونها .. وجعلت تلك التجربة العقاد يؤمن بالخيانة لتلك السمراء وبذلك يكون قد أخلص إلى أغلى ما تملك من الأشياء وفي ذلك يقول :

حل الملام فليس يثنيها حب الخداع طبيعة فيها
هو سترها وطلاء زينتها ورياضة للنفس تحييها
وسلاحها . فيا تكيد به من يصطفيها أو يعاديها
وهو انتقام الضعف ينقذها من طول ذل بات يشقيها

أنت الملوم إذا أردت لها ما لم يرده قضاء باريها
خنها ولا تخلص لها أبداً تخلص إلى أغلى غواليها

* * *

وقد كان العقاد يضع صورتها في حجرة نومه في إطار مذهب كبير علقه أمام سريره . ومع تسلل ضوء الصباح إلى حجرة نومه يفتح العقاد عينيه على صورتها ، وتكون هذه الصورة في نهاية يومه آخر ما يودع من الشخوص قبل أن يسلم عينيه للرقاد في المساء ، فيبادر إلى خلعها من مكانها ويطلب يومذاك من تلميذه الفنان صلاح طاهر أن يرسم له لوحة غريبة ليعلقها في مكانها واختار العقاد له معناها وقد تحدث العقاد عن ذلك المعنى فقال :

« إنها لا تحتمل غير معنى واحد : فطيرة حلوة يشتهيها الجائع والشبعان ، بل يشتهيها المتخوم والمكظوظ : وعليها صرصور وذباب يحوم ، وفي القدح الذي يفرغ عليها الحلاوة عسل يضطرب فيه بعض الذباب ويموت .. فلا يأكل من الفطيرة الحلوة على هذه الصورة شبعان ولا جوعان . بل تعزف النفس حين تراها عن كل طعام[1] » .

والحقيقة التي يقصدها العقاد من وراء تلك اللوحة الغريبة التي

---

(١) « في بيتي » للعقاد — اقرأ دار المعارف للطباعة ص ١١٤ .

علقها مكان صورة « السمراء » إنه لم يكن قادراً على التطلع إلى صورتها كما كان يفعل أيام حبه لها ، فقد عف عليها الذباب وعف عنها أيضاً . وأصبحت الفطيرة مقبرة للذباب ، فالذباب يموت فيها ويموت منها، ومهما كان العقاد أو غيره جائعاً فإن هذه الفطيرة تسد نفسه قبل أن يلمسها . وقد كان العقاد يدلل تلك السمراء فيلقبها بكلمة « هني » وهني معناها بالانجليزية العسل أو الشهد وهو نفس العسل أو الشهد الذي أصبح وكراً للذباب .

وعاش العقاد بعد سنوات الحرب وبعد « أعاصير مغرب » يَحذر الحب ولا يحاول أن يقترب منه ، وأصبح حب السمراء بالنسبة له جزءاً من الذكريات وفي ذلك يقول :

تلك التي كنت أغليها وأذكرها
صبحاً ومسياً وفي سر وإعلان

قد كنت أرحم نفسي من تذكرها
فاليوم أرحمها من فرط نسياني

عجائب القلب ويلي من عجائبه
عزت نظائرها في العالم الفاني

وبمرور الأيام يشعر العقاد وهو على أعتاب الشيخوخة بالفناء يدب في أوصاله ونفسه فيقول :

فراغ بارد شات ... بلا ماض ولا آت
أأموات؟ نعم لكن نحس ... فنـــاء أمـــوات
ويا بؤس الفنا نحسه ... في كل ميقات

فهرس



هذا الكتاب

هناك حقّ للقراء على العباقرة، الذين يولونهم إعجابهم وتقديرهم وتعلّقهم.. حقّ يتمثّل في تمكين أولئك القراء من الإطلاع على أوسع وأشمل ما يتعلق بهؤلاء العباقرة.. في انتاجهم، وأسلوبهم، وحياتهم، وعلاقاتهم، وعواطفهم.. حتى ليغدو العبقريّ - في صيغة من الصّيغ - ملك الجماهير، كما هو ملكُ نفسه.

و"العقاد"، بوصفه مقرّ جذب قرّاء العربيّة زهاء نصف قرن من الزمان، لا تُوفره القاعدة المطروحة آنفا.

هذا الكتاب وصف لمطارح قلب الكاتب الكبير.. بقلم أشدّ الناس قربى إليه، وألزم معايشيه لصوقًا به، وأعمق معامليه اطّلاعًا على حياته وانتاجه ومحفوظاته.. من هنا تفرّدُ وصحةُ وبعدُ ما حواه..

ومن هنا كانت مطالعته ضروريّة لاستكمال إطار معرفتنا «بالعقاد».

الناشر

الثمن ٤٠٠ ق. ل.